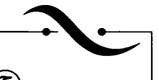
الشوق للقرآن

تأليف
د. عقيل بن سالم الشمري



الطبعة الأولى


الشوق للقرآن



ⓒ دار الحضارة للنشر والتوزيع، 1445هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشمري، عقيل بن سالم

الشوق للقرآن./ عقيل بن سالم الشمري ـ ط1 ـ الرياض ـ 1445هـ

232 ص؛ 17x24 سم

ردمك: 978-603-8404-90-4

رقم الإيداع: 1445/17860

رقم الإيداع: 1445/17860

ردمك: 978-603-8404-90-4

الطبعــة الأولــى

1445هـ ـ 2024م



المملكة العربية السعودية - الرياض

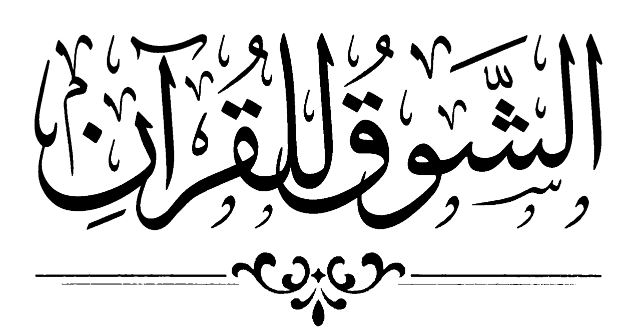
daralhadarah@hotmail.com

الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 2702719 - 011

0551523173 @daralhadarah

زوروا متجر الحضارة

daralhadarah.net



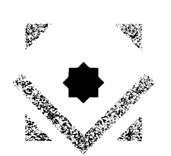
تأليف

د. عقيل بن سالم الشمري









المقدمة

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ، وبعد:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، فدلالة الآية ظاهرة في أن سماع القرآن يزيد الإيمان، فالشَّخص يجد حلاوة الإيمان في نفسه، ويجد فرقًا بين حال قلبه قبل سماع الآيات وبعدها، هذا في حال سماعه، فكيف إذا كان هو التَّالي؟! وكيف إذا كان التَّالي خاتمًا للقرآن؟! وكيف إذا كانت قراءته للقرآن عن ظهر قلب بإتقان؟! سيجد فرقًا عظيمًا في إيمانه، سيزداد هدًى، ويؤتيه الله تقواه، حتى أن ذلك يحمله على الاستعجال بالبدء بختمة جديدة، هذا وصف أولياء المتقين، وعلى هذا أذكر هذه الأسئلة:

أليس غريبًا أننا نقرأ القرآنَ ولا نجد تغيُّرًا في أفعالنا كثيرًا؟! أليس عجيبًا أن بعضنا يختم القرآن ومع هذا لا يتغيَّر سلوكه عما كان عليه قبل الختمة؟! وكم مرة قرأنا آيةً أو سورةً فعالجت سلوكًا خاطئًا عندنا؟! هل يمكن مقارنة تأثرنا ببعض مواعظ



ونصائـــح الناصحين بمواعـــظ القرآن؟! هل يعقـــل أن هؤلاء الأشخاص أكثر بركة من القرآن؟!

وأيضًـــا هـــل كل ما نقرؤه نعـــرف معنـــاه؟! وهل قول النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ؛ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ»[1] يُراد به مجرد القراءة دون معرفة المعنى؟! حتى لو كان القارئ عربيًّا لا يعـذر بجهلـه؟! وهل كان الصَّحابـي يُردِّد آيةً فيها كلمـات لا يعـــرف معناها ومع هذا يظل يردِّدها سنوات طويلـة من عمـــره؟! وهل هذا يُرضـــي الله؟! وأيهما الـــذي نهتم به في حياتنـــا المعاصرة بشـــكل أكبر؛ حفظنا للقـــرآن أم تدبرنا وفهمنا له؟!



وهناك سؤال آخر: أليس للقرآن قوة عظيمة جدًّا حتى أنه لو أُنزل على جبل لرأيت الجبل متشققًا خاشعًا من خشية الله وهيبة القرآن؟! فلماذا لا يحدث فينا شيئًا من الأثر ولو اقشعرار الجلد المذكور في قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣]؟!

(١) أخرجه الترمذي، ح(٢٩١٠)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وصحَّحه الألباني في (السلسلة الصحيحة)، ح(٣٣٢٧).

أيضًا قوله ﷺ: «**شَــيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا**»[1] مفاده أن سورًا من القرآن شــيَّبتْ رأس النبيِّ ﷺ قبل وقت الشَّــيب، لا أقول هنا: هل حصل لنا ولو شــيء يســير من ذلك؟! بل أقول: هل تصوَّرنا معنى أنَّ سورةً قرآنيةً تُشَيِّب رأس رجل؟! فشَيْبُ الرأس قبل أوانه يــدلُّ على أن هناك أمــرًا قد اســتولى على تفكيره ووجدانه ومشاعره حتى تأثرت صبغة شعره!!

وكذلك جاء في السُّـــنة أن النَّبي ﷺ أخذ يكـــرِّر آية ليلة كاملة، فقد روى النسائي عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قام بآية يكرِّرها حتى أصبح وهي قوله: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]»[2]، فيا تُرى ماذا كان يطرأ على ذهن النبي ﷺ في كلِّ مرة يردِّدها؟! وهي آية قصيرة يستطيع تكرارها مئات المرات في تلك الليلة.. ألا يشرد ذهن القـــارئ الذي يكرِّر آية عشـــرات فضلاً عن مئـــات المرات؟! فكيف حافظ النبيُّ ﷺ على حضور قلبـــه ليلة كاملة بقراءة آية قصيرة؟!

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٧)، وقال: «حســن غريب»، وصحَّحه الألباني في السلسلة (٩٥٥).

(٢) سنن النسائي، (٢/ ١٧٧)، وحسَّنه الألباني.



وكذلك كلمة الصَّحابي الجليــل جبير بن مطعم ﵁ لما ســمع آية: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥] قال: «كَادَ قَلْبِي يَطِيرُ»(١)!! وفي رواية لأحمد: «صُدِعَ قَلْبِي حِينَ سَــمِعْتُ الْقُرْآنَ»(٢)!! هل نســمع مثلها لهذه الآية أو لغيرها؟! ما سِرُّ افتقادنا لذلك؟! تأمَّل اللَّفظ مرة أخرى ولا تستعجل في قراءته «كَادَ قَلْبِي يَطِيرُ» أي: زاد خفقانه حتى كاد أن يخرج من حلقي، «صُدِعَ قَلْبِي» أي: انفطر وانشقَّ، والعجيب أيضًا أن هذا شعوره ﵁ وهو كافرٌ حينئذٍ! فلا تســألْ بعد ذلك عما حدث لجوارحــه نتيجة لما حدث في القلب، ولهذا لم يملك نفســه حتى دخل الإسلام ﵁.



وســؤال آخر: أتعلم ـ يا أخي ـ أن هذا القــرآن الذي بين أيدينا هو القرآن الذي كان مع الصَّحابة ﵃، وهو الذي صنع منهم جيلًا لا يريد إلا الله، فما الذي تغيَّر؟! لماذا لم يعد القرآن يُنتج مثل هــذه النماذج؟! هل فقد مفعوله؟! حاشــاه أن يكون كذلك وهو المعجزة الخالدة إلى يوم القيامة، إذن؛ فالخلل فينا نحن(٣).. فالقرآن لم يتغيَّر ولكن تغيَّرت القلوبُ.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٦٢).

(٢) مسند أحمد، (٤/ ٨٠).

(٣) كيف ننتفع بالقرآن، ص(١٧).



وسـؤال مُحرج لي أيضًا: هل كان الصَّحابي يبدأ بسـورة الكهف يوم الجمعة ثم يسـرح خاطره وذهنـه في قضايا رزقه، وتتمثَّل له مشكلاته الأُسـرية والحياتية والاقتصادية، فيسترسل بالخواطر معها، فإذا رجع له عقلُهُ وقلبُهُ وإذا هو بآخر السـورة لا يعلم كيـف وصل لهذا الموضع، ولا يتذكَّـر أنه قرأ الآيات السَّـابقة مع جزمه بأنه قرأها ولم يقفـز الصفحات؟! هل ذلك يحدث للصحابة بشكل دائم؟! وهل يحدث لنا باستمرار؟! إذن؛ هناك خلل ولا بدَّ، والعجيب حقًّا أن علاج ما أهمَّه مما استحوذ في تفكيره هو في بعض الآيات التي غفل عنها أثناء قراءتها!!



ولا تنسوا الأسـئلة التي تعرض على أهل العلم عن حكم جواز ترك الأجهزة تقرأ سورة البقرة هل ينفع ذلك في الرقية؟! ألا تدلُّ على أننا تعلَّقنا بأحرف القرآن والشَّكل الظَّاهري للسُّورة حتى أننا نتوقع أن أيَّ صوت للقرآن يؤدي ثمرته في بيوتنا.

وهذه أسئلة أخرى لعلها تحرِّك قلوبنا للقرآن:

كمْ مرةً قرأتَ قولـه تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ [الفلق: ٣]، وأنت لا تعرف الغاسـق ولامعنى وَقَبَ؟! والعجيب أن ذلك يتكرَّر كلَّ يوم منا ولا نُريد أن نعرف معناها!!



وكمْ مرةً قرأتَ قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾ [العاديات: ١ ـ ٢] السورة الجليلة وأنتَ لا تعرف الضَّبح ولا ما بعدها؟! والعجيب أن ذلك يتكرَّر منك دائمًا كلما قرأتَ أو سمعتَ هذه السُّورة، ومع هذا لا تريد أن تعرف.

وأعجب من ذلك ألست تقرأ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢] وأنت لا تعرف معنى الصَّمد، وكيف يكون الله صمدًا؟! والعجيب أنك تقرأها كثيرًا وفي كلِّ مرة أنت لا تعرف معناها! وإذا عرفتَ معناه هل دعوت الله به؟!



هل تتوقع أن هذا السُّلوك يحبُّه الله، هل تتوقع أن الله أنزل القرآن لأجل أحرف كلمة (صمد) وغيرها، ولهذا فمتى ما قرأتها أخذت أجرًا عظيمًا ولو لم تعرف معناها؟! هل يعقل هذا؟!

ولكي ندرك حجم المأساة عندنا؛ فإنَّ سورة الإخلاص = الصمد تعدل ثلث القرآن، والسؤال هنا: ألا يدلُّ ذلك على أن في هذه السورة سرًّا لا يليق أبدًا أن يغفل عنه المؤمن؟ فلا يليق أن نغفل عن معناها وحكمها، بل ليس كثيرًا والله بعد هذا الحديث أن ينقضي عمر طويل منا في فقه هذه السُّورة.

ونلتفت للخوارج ـ أهل قراءة القرآن ـ فتبرز لنا أسئلة عديدة منها: كيف أمر النبي ﷺ بقتل مَن يقرأ القرآن ليلاً ونهارًا



وهو من الخوارج؟! كيف أُلين لهم قراءة القرآن مع ما هُمْ عليه من الضَّلال؟! لو كان مجرد القراءة يترتب عليها أجر كل حرف بعشر حسنات؛ فكم حسنة جناها الخوارج من قراءتهم للقرآن، والصحابة يحقرون قراءتهم مع قــراءة هؤلاء القوم؟! مما يدلُّ على أن مجرد القراءة قــد لا ينجيك من الضَّــلال والعذاب؛ فكيف وأنت تريد النفع مــن وراء قراءة تبدأ من الحلق وتنتهي عند الحلق؟! ولهذا قال ﷺ: «**لَا تُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ**»(١).

وكذلك ألم نحفظ فــي المدارس والجامعــات عددًا من أجزاء القــرآن وأَتْقَنَّاها واختبرنا فيها.. أيــن أثرها علينا وعلى سلوكنا وأخلاقنا وعباداتنا؟! والله المستعان.



وبهذه الأســئلة نبدأ الكتاب على بركة الله، وعلى خلاف العُرف الأكاديمي في تقســيم الأبحاث، فقد رأيت تقسيمه إلى أقسام كما يلي:

- **القسم الأول**: أزمة التعامل مع القرآن.
- **القسم الثاني**: قوة القرآن.
- **القسم الثالث**: الفرح بالقرآن.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٥٦٠).



- **القسم الرابع**: القرآن وحملته.
- **القسم الخامس**: الفجوة بين العلم بالقرآن والعمل به.
- **القسم السادس**: عتبات الشَّوق للقرآن.
- **القسم السابع**: تدبُّر آية خيرٌ من ختمة.







القسم الأول
أزمة التعامل مع القرآن

لدينا أزمة:

ورد في السُّنة النبوية أن هناك أزمة ستحدث في التعامل مع القرآن، فكان النبي ﷺ يحذِّر أصحابه من عدم فقه القرآن، ويحذِّرهم من ضرب القرآن بعضه ببعض، ويحذِّرهم من الإيمان ببعضه دون بعض، وأكثر ما حذَّرهم منه هو ألا يجاوز القرآن حناجرهم، وكان كثيرًا ما يذكر لهم حال اليهود والنصارى الذين بين أيديهم التوراة والإنجيل، فلم تكن سببًا في هدايتهم، بل ضلوا فيها وبها، حتى أن زياد بن لبيد الأنصاري رضي الله عنه لما قال للنبي ﷺ: كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ، فَوَاللهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟»**[1].

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٣)، وقال: «هذا حديث غريب، ومعاوية بن صالح ثقة عند أهل الحديث، ولا نعلم أحدًا تكلَّم من غير يحيى بن سعيد القطان»، والدارمي (٢٨٨). وقال الحاكم (١/ ٩٩): «هذا إسناد صحيح من حديث البصريين»، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي.



كما أخبرهم بأن القرآن سيرفع آخر الزمن، وحذَّرهم ممن يقرأ القرآن ليُقال قارئ، مما يدلُّ على أن هناك أزمة ستحدث تجاه القرآن، فكان النبي ﷺ يحذِّر منها، ويدلُّ على المنهج الصحيح قبل وقوعها، وبيَّن الصحابة الكرام رضي الله عنهم أن أول عِلْم سيرفع هو عِلْم الخشوع، وهو عِلَم القرآن الأعظم، فالخشوع أساسه القرآن، والقرآن يثمر الخشوع ولابدَّ، فإذا كان القرآن لا يثمر لك الخشوع؛ فما الذي يثمره لك؟! ومن آثار رفع الخشوع الخلل في تصور الخشوع التصور الصحيح الشرعي له، مما جعلنا نحاول أن نتَخَشَّع في جوارحنا لعلنا نحاكي ونشابه الخشوع الوارد، ولا يمكن أن يكون التقليد كالأصلي!!



وهذا جُبير بن نفير رضي الله عنه الإمام الكبير من علماء الشَّام يستغرب من حديث زياد السَّابق ويسأل عُبادة بن الصامت رضي الله عنه فقال: أَلَا تَسْمَعُ إِلَى مَا يَقُولُ أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَقَالَ عُبادةُ رضي الله عنه: «صَدَقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، وَهَلْ تَدْرِي أَيُّ الْعِلْمِ أَوَّلُ يُرْفَعُ مِن النَّاسِ أَوَّلاً؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: الْخُشُوعُ، يُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ جَمَاعَةٍ فَلَا تَرَى فِيهِ رَجُلاً خَاشِعًا»[1].

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند)، (٢٤٠٣٦)، والترمذي في (السنن)، (٢٦٥٣)، وقال: «حسن غريب».

وأظنُّ أن السَّلف أدركوا بداية هذه الأزمة ولهذا ألَّفُوا كُتُبًا في أخلاق حملة القرآن، وألَّفُوا في اتباع العلم العمل لعلاج هذه الأزمة المهلكة، ومَن تأمَّل أحاديث رفع القرآن آخر الزمن؛ فلا بدَّ أن يستنتج أن تلك الفترة يسبقها غفلةٌ وإهمالٌ، وهجرٌ وإعراضٌ عن القرآن، ومعلوم أن القرآن محفوظ الألفاظ، فالأزمة ـ إذن ـ ستكون أزمة عملٍ بالقرآن.

ومَن تأمَّل سيرة القرون الفاضلة في تعاملهم مع القرآن أدرك أن أمرين يسيران سويًا، العناية بألفاظه ومعانيه، والعناية بالعمل به، والعناية بمعانيه والعمل به أكثر وأشد وأمتن وأدوم.



فهل يا تُرى تلك الأزمة التي حَذِر منها السَّابقون انتهت أم تفاقمت عبر السنين؟! وإلى أيِّ مدى وصلت؟ وهل يمكن استدراك الأمر؟! وكمْ هو الجهد المطلوب للاستدراك؟!

إنَّ مَن أراد أن يعرف ضابط قُربِهِ من القرآن، أي: هل أنت قريبٌ من القرآن أم لا؟ فليأخذ أدوات قياس السَّلف المتقدمين، ومَن قرأ سِيرهم عرف أن الأمر لا يُقاس عندهم بمقدار القراءة، أو عدد الختمات! بل عندهم أداة واحدةٌ وهي: قُربُك وصحبتُك للقرآن على قدر عملك به، فأنت صاحبُ قرآن وقريبٌ ما دمت عاملاً به.



وهناك أداة قياس دقيقة أخرى، لا تخالف الأداة السابقة وهي أن ينظر قارئ القرآن إلى مرض العصر المنتشر، فينظر مدى تأثره بهذا المرض من عدمه، فلو كان مرض العصر التعلُّق بالدنيا مثلاً؛ فلينظر إلى تَعلُّق قلبه في ذلك، فيعرف هل هو صاحب قرآن أم لا؟ لأن القرآن حصن منيع عن الأمراض.

فحينما انفتح الناسُ على المال في دول الإسلام الأولى كان أهل العلم يجعلون الزهد هو العلامة الفارقة كما قال كُرز الحارثي: «لا يكون العبدُ قارئًا حتى يكون زاهدًا بالدرهم»[1]، وفقه هذا يرجع إلى أولويات أعمال القلوب حسب الأزمنة، فقد تدعو الحاجة إلى عمل قلبي أكثر من غيره في فترة من الفترات، ففي فترة الرِّدة زمن أبي بكر رضي الله عنه كان العمل القلبي المقدم هو اليقين، وفي زمن عمر رضي الله عنه كان العمل القلبي المقدم هو الغيرة لله وحده دون غيره، وهكذا في كلِّ زمن يحتاج صاحب القرآن أن يكتشف العمل القلبي الذي هو أولى بالتقديم فيقدِّمه، واكتشاف هذا لن يكون إلا بالقرآن وفقهه، فما من زمن إلا ومثله وقريب منه وشبيهه مذكورٌ في نصوص الوحي، مع ذكرٍ للمنهج الصَّحيح لعلاج ذلك. أما إنْ كان الشخص تاليًا

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ٨٦).



للقرآن دون معرفة لذلك، فهذا مشــعرٌ بوجود أزمة في التعامل مع القرآن، ولو أن شخصًا يقرأ أوراقًا فيها تعاليم مرضٍ صحي والوقاية منــه وطريقة علاجه ولم يشــعر أن تلــك العلامات موجودةٌ به هو، ولم يستعمل تلك الوقاية ولا العلاج؛ فهذا أمر عظيم أعظم من مرضه المصاب به.

ونظرًا لقوة القرآن؛ فإنه يثير لدينا تأنيب ضمير أحيانًا على تقصيرنا تجــاه العمل به، فإذا رأى الشــيطان ـ وهو يجري منا مجرى الدم ـ تلك الومضة من النور؛ فإنه يبادر إلى إطفائها من خلال الأفــكار البــاردة والخواطــر اللينة التي تجعــل العبد يســتعرض حاله، فيجد أن لديه صلاة وقراءة للقرآن وشيئًا من الذِّكر وتركًا لكبائر الذنوب، فيشــعر بنوع طمأنينة يكتفي بها، ولا يعمل على اســتثمار تلك الومضة ليصحِّح سلوكه وحياته على ضوء آيات القرآن.



ومما يؤكِّد أزمة التعامل مع القرآن أننا في حال ممارســة الرقية لا نعلم أي آيات القرآن تناســب مرضنا؟ وإذا قرأنا آية الكرســي العظيمة لا نعلم طريقة ربطها بالمرض الذي نرقيه، وكيفية استحضار ذلك ليتوافق الدواء مع الداء! وإذا سمعنا عن فضل الفاتحة في الرقية؛ فإننــا لا نجد ذلك حينما نقرأها على



أمراضنا وأمراض أهلنا إذا رقيناهم بها، مع أن النبي ﷺ قال: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ**»[1]، وقد أبطلت الفاتحة سُمًّا في جسد الصحابي، وقوله: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ**» لا يُراد منه الاستفهام، إنما هي كلمة تُقال عند التعجب، وتستعمل في تعظيم الشَّيء[2]، ولهذا استنتج بعض أهل العلم أن القرآن مع بركته فليس كله رقية، فكأن النبي ﷺ تعجب منه وسأله: كيف عرفت أنها من الآيات التي تناسب الرقية للمريض مع أني لم أخبرك بذلك؟! الآن وبعد أن أخبرنا النبي ﷺ أنها رقية وصار لدينا نصٌّ نبويٌّ.. هل يحدث لدينا كما حدث لذلك اللديغ؟! مع أننا نقرأ كما قرأها الصحابي قطعًا، إذن؛ أين الخلل؟!



وهناك مشهد آخر يدلُّ على وجود أزمة لدينا في التعامل مع القرآن وهو مشهد الاستدلال والربط بالقرآن، فكم يحدث أمامنا حوادث، أو يطرق أسماعنا قصص لها شبيهٌ بالقرآن، أو لها علاقة بالقرآن، أو يوجد تناسب بينها وبين القرآن ومع هذا لا ندركه ولا نربط بينها وبين القرآن، فكلُّ قصة شاهدناها أو سمعناها أو جملة قرأناها؛ ففي القرآن مثلها وأحسن تفسيرًا،

---

(١) صحيح البخاري (٢٢٧٦).

(٢) فتح الباري (٤/ ٤٥٧).



فلـــو كان القرآن حاضرًا فـــي أذهاننا وقلوبنا لربطنا كلَّ شـــيء بالقرآن فازددنا إيمانًا حين نـــرى ما ذكره الله في كتابه من وعد ووعيد وقصص وأخبار ماثلة أمامنا في الحياة.

فمَن لم يعرف معاني القرآن فلا يمكنه ذلك، ولهذا يختل عنده السـلوك فيتصرَّف بناءً على هواه وليس على ما يحبه الله في ذلك الموقف المذكور مثله فـــي القرآن، فكيف بما يمكره الشيطان في الإنسان وكله مذكور في القرآن، ومع هذا لا ينتبه العبد القارئ للقرآن لذلك، فيبتلى مثلاً بنجوى النفس وأحاديثها وينفتح عليه باب الوسوســة، فيدخل الخلـــل لحياته كلها، ثم يســري لعبادته فتختل أيضًا، وقد يســأل عـــن علاجه كل غادٍ ورائح، مع أنه يقــرأ آية النجوى في ســورة المجادلة ويتقنها: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المجادلــة: ١٠]، فذكرت الآية ســبب الوسوســة وإلـــى أيِّ مـــدى تؤثِّر علـــى العبد؟ وما علاجها؟ فكشــفت له ســر المرض وغايتـــه ونهايته، هذا والعبد غافل عن ذلك، والنجوى النفسية أحد صورها الوسوسة وليســـت كل صورها، فكم من النجوى كانـــت خارج النفس يلقيها عليك شــيطان الإنس تشـــبه تلك النجوى النفسية التي يلقيها شــيطان الجن، فكلُّ كلام خفي يخالف اتباع الحق فهو





نجوى، فلو أن كلَّ مرض ســببه النجوى تعامــل معه قارئ القرآن على ضوء تلك الآية، فكم سيصلح من الفساد الخاص والعام؟! وفي الآية كشفٌ لطريقة من طرق كيد الشيطان ومن خلاله تكتشف طرقه الأخرى، وفيها أيضًا أن تحزين المؤمن مقصودٌ شــيطاني، وبهذا تدرك حجم الاستعاذة بالله من الهمِّ والغمِّ والحزن في السُّــنة النبوية، وتعلم أيضًا أن الشــيطان لا يدخل للعبد إلا من خلال باب فتحه العبدُ على نفسه، وإلا فليس للشيطان ســلطانٌ على المؤمن إلا بســلطان أقامه هو على نفسه.



ومن الآية أيضًا تعلم معية الله لعبــده المؤمن ومدافعته عنــه ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا﴾، ويظهر لك اســم الله الجبَّار والقهَّار والقوي والمتين وأشــباهها مــن خلال ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وفيها علاج التوكل النافع الشامل لكلِّ مرض نفسي اجتماعي سببه النجوى والمناجاة، والمقصود هو بيان أزمة التعامل مــع آيات نقرأها ونحتاجها وفيهــا مرضنا وعلاجنا ومع هذا نغفل عنها.

ومن أزمة التعامل أيضًا مع القــرآن ترتيبه في أولويات طلب العلم، فعنايتنا بالكتب العلمية في السلم العلمي وفقه



ألفاظ أهل العلم قد تفوق العنايــة بفقه معاني القرآن! أليس من الخلل أن يحــرص طالب العلم على حواشــي المتون وتفاصيــل دقائــق الألفاظ ولا يــوازي ذلك عنايــة بألفاظ القــرآن؟! هل هذا تــوازن صحيــح؟! ولكثرة ســوء الظن يضطرني ذلك إلى أن أُبيِّن أن كلامــي لا يعني إهمال متون أهل العلم وكتبهم؛ كيف وفيهــا كلام الله، وهي مأخوذة من كتاب الله، لكني ألوم نفسي على التقصير مع القرآن، التقصير الذي لا يوازي مكانته، مع أن لديَّ القدرة على العناية بكتب أهل العلم بشكل مُرضي.



وهــذا معاذ بن جبل رضي الله عنه صاحــب القرآن وأعــرف الناس بالحلال والحرام يقول: «**سَيَبْلَى الْقُرْآنُ فِي صُدُورِ أَقْوَامٍ، كَمَا يَبْلَى الثَّوْبُ فَيَتَهَافَتُ، يَقْرَءُونَهُ لَا يَجِدُونَ لَهُ شَــهْوَةً وَلَا لَذَّةً، يَلْبَسُــونَ جُلُودَ الضَّأْنِ عَلَــى قُلُوبِ الذِّئَــابِ، أَعْمَالُهُمْ طَمَــعٌ لَا يُخَالِطُهُ خَوْفٌ، إِنْ قَصَّرُوا قَالُوا: سَنَبْلُغُ، وَإِنْ أَسَاءُوا قَالُوا: سَيُغْفَرُ لَنَا، إِنَّا لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَــيْئًا**»[1].. فهؤلاء القوم يقرءون القرآن، فهُمْ ليسوا بمبتعدين عنه؛ فلماذا جمع معاذ بين الشهوة واللذة: «لا يجدون له شهوة ولا لذة»؟ مراده بذلك: أن ليس لهم شوق لقراءة القرآن،

(١) رواه الدارمي في سننه (٣٤٤٩).



ولهذا لا يشـــتهون أن يقرءوا القرآن، ولا يتلــذذون حين قراءته، فلا يشتاقون قبل القراءة ولا يتلذذون حين القراءة!!

وأول الأثر بيَّن فيه معاذ رضي الله عنه السـبب وهو أن الإيمان بَلَى وضعف في قلوبهم، ولم يجدِّدوه كما يجـدِّدون ثيابهم، ومن أعجب ما في الأثر ـ وكله عجيب ـ تضخم الرجاء والطَّمع في قلوبهم على حساب الخوف، فلم يكن عندهم توازنٌ في أعمال القلوب، فشابهوا أهل الكتاب في قولهم: سيغفر لنا!!



لكن لماذا شبَّه معاذ رضي الله عنه القرآن في قلوبهم بالثوب البالي؟! إشـــارة إلى أن القرآن صـــار كالثوب البالي الــذي لا يؤبه له، ولا ينظر إليه، ولا يرغب فيـــه[1]، أي: بمعنى زوال هيبة القرآن وتعظيمه من القلوب.

وفي الليلة التي كرَّر فيها النبـــي صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائــدة: ١١٨] كان قـــد حضرهـــا صاحب القـــرآن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فسأل النبيَّ صلى الله عليه وسلم السُّـــؤال الذي كنا جميعًا سنسأله وهو: «بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، قُمْتَ اللَّيْلَةَ بِآيَةٍ وَاحِدَةٍ بِهَا

(١) غربة القرآن، ص(٦٩).



تَرْكَعُ وَبِهَا تَسْـجُدُ وَبِهَا تَدْعُو، وَقَدْ عَلَّمَكَ اللهُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ، قَالَ: «إِنِّي دَعَوْتُ لِأُمَّتِي»[1]، أي أن النبي ﷺ يقرأها بنية الدُّعاء لأمته، فعلى هذا ينبغي أن نقرأ بعض الآيات على أنها دعاء، فكم من آية هي دعاء مع أنها لا تشـتمل على كلمـة (اللهم) أو (ربنا)، لكنه فقه القرآن الذي يميِّز بين الأخبار والدُّعاء.. فالفاتحة مثلاً يحقُّ لك أن تقرأها على أنها قـرآن وعلى أنها رقية، وعلى أنها دعاء، وعلى أنهـا تمجيد لله وثناء عليه، وتُقـرأ على أنها ولاءٌ للمؤمنين وبراءٌ من الكافرين، ولكلٍّ واحدة من هذه آية تختصها.



وحتى يكتمل فهم الموضوع فليسـت أزمتنـا مع القرآن ـ غفر الله لنا ـ هي في العمل به وفهمـه فقط، بل تمتد الأزمة لتصل إلى قراءته أيضًا، فأشد الأمراض هجر القراءة وهجر فهم المعنى وهجر العمل، وأدنى من ذلك درجات أخرى. والمهم أن نشعر بالأزمة والخطورة ثم نقبل على الله في علاجها؛ فمَن أقبل على الله شبرًا أقبل الله عليه ذراعًا.

---

(١) مسند البزار (٤٠٦٢)، وقال البزار (٩/ ٤٥١): «وَهَذَا الْكَلَامُ لاَ نَعْلَمُ أَحَدًا رَوَاهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا أَبُو ذَرٍّ وَلَا نَعْلَمُ لَهُ طَرِيقًا غَيْرَ هَذَا الطَّرِيقِ، وَقُدَامَةُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رَوَى عَنْهُ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زِيَادٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ وَغَيْرُهُمَا وَجَسْرَةُ بِنْتُ دَجَاجَةَ هَذِهِ فَلَا نَعْلَمُ حَدَّثَ عَنْهَا غَيْرُ قُدَامَةَ».



أزمة أيضًا في معاني الأذكار الشرعية:

عايش الصحابة نزول الوحي، فإذا نزلت الآيات من القرآن تخبرهـــم بأمر بتعلــق بهم، أو بمـــا حولهم؛ كانوا أشـــد فهمًا لمعانها، فاجتمع لهم مع عربية اللســـان معايشة الوحي، وبهذا تميزوا عمن جاء بعدهم، ثم جاء من بعدهم من التابعين ففهموا الوحي من خلال معايشـــتهم للصحابة ﭫ ومن خلال لسانهم العربي الفصيح، وهكذا شيئًا فشيئًا بدأت الأجيال تفقد أمرًا من الأمور التي تســـاعدهم على فهـــم الوحي، حتى جـــاء زماننا المعاصر ففقدنا كثيـــرًا من الألفاظ العربيـــة الأصيلة، وأصبح استعمالنا لها قليلًا، حتى أن بعض الألفاظ اندثر وانتهى لفظنا بها إلا في محيط عبادتنا، فكلمة (ســـبحان) لا نســـتعملها في حياتنا اليوميـــة إلا مقرونة بلفـــظ الجلالة، ولهـــذا فلن يكون استحضارنا لمعنى (سبحان الله) مثل استحضارنا لكلمة (الثناء لله)، لأننا نســـتعمل كلمة الثناء في حياتنـــا اليومية كثيرًا ففهمنا معناها واستعملناها. ولاشـــك أن النطق بكلمة سبحان الله مع معرفة معناها واســـتحضارها وفقهها وانعـــكاس أثر ذلك على إيماننـــا وقلوبنا هو المقصـــود من قول تلـــك الجملة العظيمة (سبحان الله).





إننا نعيش أزمة في فقه معاني الألفا الشرعية، ولتزداد يقينًا بذلك، اســأل ابناءك وأهلك وأحبابك هل نحن نستعمل كلمة إله وتألَّه ومألوه في حياتنا اليومية؟! هــل مرَّ عليكم من يقول لابنه: تألَّه؟! فإذا لم تكن مستعملة في حياتنا اليومية فلن يكون استحضارنا لمعناها مثل كلمة أخرى نحن نستعملها يوميًا. فإذا قال المؤمن: لا إله إلا الله، وكررها، هل ســيكون بهذا التكرار مستحضرًا معناها ويتجدد له من الإيمان بقدر تكراره لها، حتى أنه يجد الفرق في قلبه ونفسه بين حاله قبل أن يقولها وبعد أن قالهــا؟!. إن كلمــة الإله تعنــي المحبوب المطــاع، فإذا قال المؤمن: لا إله إلا الله، هو يقول: لا محبوبَ مطاعٌ عندي إلا الله وحده لا شــريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير، فإن كرر هذه الكلمة بفهم المحبة والطاعة، واســتعرض أفعاله وأقواله في ذهنــه أورثه ذلك خضوعًا وانكســارًا لربه، وإنابةً ورجوعًــا له، وهذا هــو معنى لا معبود بحــقٍ إلا الله، فالمعبود هو المحبوب المطاع.



ولأزيدك أمثلة على حاجتنا لمراجعة فقه الأذكار الشرعية، فهناك ذكر شرعي منقسم إلى جملتين، يختلف فقهنا لمعناهما، ونجد الفرق في أنفسنا، فإذا قلنا: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإننا نجد من أنفسنا أننا ندرك معنى القوة ونستحضرها، بينما إدراكنا



لمعنى الحول هو أقــل من ذلك الإدراك، وقــد نجعله رديف القوة، غير أن الحول هو التحول من الحال التي عليها العبد إلى حالٍ أخرى، فالعبد المؤمن يتبرأ مــن تحوله إلى حال أخرى، ويظهر لســيده بأنه لا حيلة له في ذلك، ثم يتبرأ من قوته على هذا التحول مع أنه يريده ويسعى إليه إلا بإعانة الله.

وأختم بالصلاة علــى النبي ﷺ فنحن نطلــب من الله أن يصلــي على نبيه ﷺ فمــا معنى ذلك؟ وهــل الله يصلي حتى نطلب منه ذلك لنبينا محمد ﷺ ؟



ومن هنا فرَّق ابن القيم بين صــلاة العلماء وصلاة غيرهم فقال: « ولهــذا كانت صلاة أهل العلم العارفين بســنته وهديه المتبعين له على خلاف صلاة العــوام عليه الذين حظهم منها إزعاج أعضائهم بها رفع أصواتهم»[1].

أرأيت حظهم إزعاج أعضائهــم؛ لأنهم لا يعرفون معناها، وبالتالي لا يستشــعرون أمرًا قلبيًا يمر على قولهم أثناء الصلاة والســلام على النبي ﷺ، وهذا هو أحد الأســباب وراء برود الشــعور تجاه الصلاة على النبي ﷺ ولا نزداد حماسًا للصلاة عليه إلا حينما نعلم أن الصلاة عليه أحد أسباب زيادة الرزق.

---

(١) جلاء الأفهام، ص٤٥٢.



إن تكرار الصلاة والسلام على النبي ﷺ لا يقصد منه العدد في الشـــريعة، ولو كان ذلك مقصودًا لكان أحظ الناس به أقواهم حنجرةً وأطولهم صوتًا! حتى الحســـنات التـــي تأتي من وراء صلاة وســـلام على النبي ﷺ لا يُفهم معناها إنما هي حسنات خفيفة فـــي الميزان، لأن الأعمـــال توزن كما يـــوزن صاحب العمل، فكما أن الرجل الســـمين لا يزن جناح بعوضة فكذلك بعض العمل الكثير وهو خواء من داخله، قد يؤجر صاحبه على الاجتهاد ونية الخير لكن وزن العمل نفسه فليس كذلك.



إن حرص الشـــرعية على كثرة الصلاة والسلام عليه ليثمر زيادة الشوق والمحبة له، ولنعتاض عن نقص رؤيتنا له بكمال شـــوق قلوبنا إليه، مما يحملنا على كمال الاقتداء به والاهتداء بهديه.

إن الصلاة على النبي ﷺ: تعني أننا نطلب من الله أن يثني على نبيه بين ملائكته في الملأ الأعلى، فنحن نعترف أمام ربنا بأننا عاجزون عن الثناء على هذا الرجل الذي كنا جُهالًا فهدانا الله به، وكنا ضُلَّالاً فهدنا الله به، صبر حتى نشـــر الدين، وقد أُوذي وفُتن وابتلي وطُرد، مات أمامـــه جده وأعمامه وزوجته وأكثر بناته، وأما أصحابه وأحبابـــه ففي كل معركة يفقد عزيزًا



محبًا، فقابل الابتلاءات بالصبر والحلم وكمال التعبد لله، لم يمت إلا وقد علمنا عن كل حكم كل شيءٍ، ودلَّنا وعرَّفنا وأوصلنا لله، وطمأننا أنه ينتظرنا على الحوض، وبشرنا بشفاعته، فمثل هذا لن نعطيه قدره بثنائنا عليه، ولو سخرنا كل ألفاظنا ومدائحنا، فلا يليق بنا والحالة هذه إلا أن نستفزع بربنا ونطلب منه أن يثني على نبينا الكريم بين الملائكة، وأن يباهي به، وإذا أثنى الله على أمرٍ فقد كتب له البقاء، فبثناء الله على نبيه الكريم سيُبقي دينه وشرعه في الأرض، واللوازم من ثناء الله على كثيرة جليلة، يتفكر فيها المؤمن وهو يكرر الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ[1].



إن المقصود أن ندرك إلى أي مدى وصلنا من الخلل في فقه الأذكار الشرعية، مما يحتم علينا علاج ذلك.

أثر الحياة المادية على قراءتنا للقرآن:

نحن أبناء بيئتنا المعاصرة، والتي طغت فيها الماديات والحسابات ولُغة الأرقام؛ فأثَّر ذلك على بعض تصوراتنا عن العبودية، فالبعض يظن أن كلَّ حرف من القرآن بعشر

(١) يمكن مراجعة الفضائل من كتاب جلاء الأفهام لابن القيم.



حســـنات هو قانون عام ينطبق على كلِّ مَن أتى بأيٍّ حرفٍ من القرآن، كما يتعامل مع ماديات العصر الحالي، ولو كان بهذا الأمر لكانت آية الدَّين أكثر أجرًا من سورة الإخلاص! التي تعدل ثلــث القرآن، وبهــذا المنطق ســيكون قولك: (سبحان الله وبحمده) مائة مرة أفضل بكثير من قراءة سورة الإخــلاص؛ لأن الأولى تغفــر ذنوبه وإنْ كانـــت مثل زبد البحر، بينما سورة الإخلاص ســبعة وأربعون حرفًا، وكلُّ حرف بعشر حســـنات فمجموعها أربعمائة وسبعون حسنة! فأين هذا الرقم من زبد البحر؟!



هذا كلُّه تفكير مَن لم يفهم المراد من كون الإخلاص ثلث القرآن، ويتعامل مع الأحرف دون المعانـــي، وهذا غير مرادٍ لله حين رغَّبنا بعشـــرات الحســـنات إنْ قرأنا القـــرآن، ولم يقصده النبي ﷺ أبدًا حين حثَّ الصحابة ﵃ على قراءة القرآن ومنعهم من كتابة السُّنة النبوية أول الإسلام، ولم يطرأ هذا التفكير على علمائنا الكِرام حين فاضلوا بين ســرعة ختم القرآن في رمضان وبين قــراءة التأمــل والتدبُّر، إنهــم جميعًا لم يقصـــدوا قراءة الأحـــرف، بحيث تمــر عليك الكلمـــات تلو الكلمـــات وأنت لا تعرف معناها، ولم يحفزك جهلك على طلب معناها، ولا تريد ذلك، بدليل قراءتـــك المتواصلة وجهلك المعنى طوال ســـنين



عمرك، وهذا التفكير أحد نتائج أزمة الأمة حين انفك الظاهر عن الباطن عندها، فأَوْلَت الشَّكل الخارجي الاهتمام أكثر من المضمر الباطني القلبي، وما تبع ذلك من انحراف في مسمى أعمال القلوب حتى وصل الأمر إخراجها من مسمى الإيمان.

إنَّ الله سبحانه وتعالى حكيم في ترغيبه المؤمن بالحسنات إنْ قرأ القرآن؛ لأنه يريد من عبده ألا يفارق القرآن قراءةً وتأملاً وتدبرًا وعلمًا وعملاً، فإنْ أحس بفتورٍ أو ضعفٍ؛ فليتذكر الحسنات العظيمات، فلعل نفسه تتشجع للقراءة والرجوع للقرآن والارتباط به. ومثال ذلك: الأب الذي يرصد مكافأة لابنه إنْ استمر في المذاكرة عدة ساعات، هو بالتأكيد لا يقصد مِن وراء ذلك مجرد جلوسه على المكتب والنظر في الكُتب دون فهم ما تحتويه، بل هدفه تشجيع ابنه على المذاكرة بذهن حاضر ليتحقق له النجاح[١].

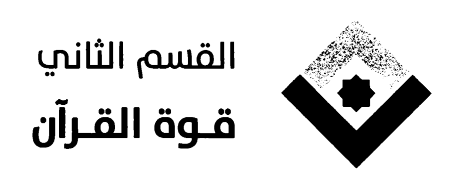


غنيٌّ عن القول بأني لا أقصد التزهيد بجانب طلب الثواب في قراءة القرآن إلا أني أشير إلى الأجر العظيم والعظيم جدًّا المترتب على تدبُّر وفقه وفهم الآيات والعمل بها أكثر من الثواب المترتب على مجرد قراءة الحروف دون فهم المعاني.

---

(١) كيف ننتفع بالقرآن، ص(٧).





القسم الثاني
قـوة القـرآن

قوة القرآن:

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قــوي، ومن أســمائه القوي، ومن صفاتــه القوة، وكلامه قوي وجمع القوة من كلِّ أقطارهــا، وقد أظهر الله لنا مثلاً حســيًّا للقرآن، وأتى به من واقعنا لندركه ونفقهه، فأعظم ما في الوجود هو الجبل، فلو أُنزل عليه القرآن لتصدَّع لدرجة أنك ترى التصدُّع رؤية عينيةً كما قال: ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ أي: بعينك، والإمــام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول فــي قوله تعالــى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] قال: «وَلَوْلَا أَنَّهُ سُــبْحَانَهُ جَعَلَ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى حَمْلِــهِ مَا جَعَلَهُ، لِيَتَدَبَّــرُوهُ وَلِيَعْتَبِرُوا بِهِ، وليتذكروا ما فيه من طاعته وعبادته، يَقُولُ تَعَالَى جَدُّهُ وَقَوْلُهُ الْحَقُّ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، فأين قوت الْقُلُوبِ مِنْ قُوَّةِ الْجِبَالِ! وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى رَزَقَ عِبَادَهُ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى حَمْلِهِ مَا شَاءَ أَنْ يَرْزُقَهُمْ، فَضْلاً مِنْهُ وَرَحْمَةً»[1].



---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٤).



ومن قـــوة القرآن أنه يدخـــل إلى منطقة لا يســـتطيع أحدٌ الوصول لها، وهي منطقة الإيمان داخل القلوب، فالقرآن يدخل مباشرةً ويتسلَّل لتلك المنطقة ويحرِّكها فيزيدها إيمانًا، كما قال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقصة الرجل العاتي الجبار العنيد الوليد بن المغيرة والذي ما تغيَّر وجهه مثل تغيُّره حينما تليت عليهم آيات الله من فم النبي ﷺ.. إنَّ بعض قلوب الرجال أقوى من الجبال، فإذا خالطها عناد واســتكبار زادت قوتها، ومع هــذا يزعزعها آيات تتلى، إنَّ قوة القرآن من آثار قوة الله المتكلم به.



وهذا أحد الأســرار التــي جعلت الصحابــي يتغيَّر خلال لحظات بعد إســلامه وتلاوته لآيات أو ســماعه لهــا، فيغير تصوراته وعقائده وعاداته التــي ورثها عن آبائه، والأعجب أنه يقطع متعلقــات قلبه وما هو معتاد عليه، هــذا كله يحدث في لحظات ويستمر مع الأيام زيادة، فتُنتزع عوائد الجاهلية من قلبه وسلوكه، وتغرس بدلها أشــجار الإيمان التي تؤتي أكلها بعد حين بإذن ربها، ومن القوة أن تلك الآيات تغزو صفات النفس من الجشع والطمع والعلو والفخر فتغيرها في لحظات، ويضع مكانها التواضــع والإخبات والافتقار، فمَــن يقوى على تغيير النفس؟! أليست هذه هي القوة العظمى؟! هذه قوة القرآن!!



إنَّ الصحابة رضي الله عنهم حينما خرجوا خارج ديارهم لنشر الإسلام كانت رؤيتهم وسماع كلامهم تشهد لكلِّ مَن شاهدهم أنهم ربانيون وعُبَّاد ومن أهل الآخرة، أو من اتباع الأنبياء السابقين، بل كان النصارى إذا شاهدوهم قالوا: الآن عرفنا هيئة حواريي المسيح الذين كنا نقرأ صفاتهم في كتبنا، فقد تأثرت أشكالهم الخارجية بصبغة الإيمان والخشوع، فرؤية العُبَّاد تُذَكِّر بالله ربِّ العالمين، وكما أن الله من أسمائه المبين، فتظهر آثار هذا الاسم على أوليائه، فهُمْ واضحون بيِّنون لا يخفون، وهذا من قوة القرآن أن يغيِّر باطن الإنسان وظاهره.



ولقوة تغيير القرآن لأصحابه كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلِ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قُلُوبِنَا**»، فاختيار لفظ الربيع مقصود التأمل به.. «فالربيع هو المطر الذي ينزل من السَّماء فينبت به النباتُ، قال النبي ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ**»، والفصل الذي ينزل فيه أول المطر تسمِّيه العربُ الربيعَ؛ لنزول المطر الذي ينبت الربيعُ فيه، وغيرهم يسمِّي الربيعَ الفصلَ الذي يلي الشِّتاءَ؛ فإنَّ فيه تخرجُ الأزهارُ التي تُخلقُ منها الثمارُ وتنبتُ الأوراقُ على الأشجار، والقلبُ الحيُّ المنوَّرُ؛ فَإِنَّهُ لِمَا فِيهِ مِنْ النُّورِ يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيَعْقِلُ، وَالْقَلْبُ الْمَيِّتُ؛ فَإِنَّهُ



لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ»[1].. فكلمة الرَّبيع تدلُّ على أن القرآن يراد منه التَّغيير حتى تنبت أزهاره، أي أن القلب لا يبقى على حاله.

ومن قوة القرآن أن السُّورة الواحدة تكفي للعمل إذا فهمت معانيها، وهذا من إعجاز القرآن، ولهذا قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كُنَّا صَدْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْ خِيَارِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا مَعَهُ إِلَّا السُّورَةُ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ شِـبْهُ ذَلِكَ, وَكَانَ الْقُرْآنُ ثَقِيلاً عَلَيْهِمْ وَرُزِقُوا الْعَمَلَ بِـهِ, وَإِنَّ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّـةِ يُخَفَّفُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ حَتَّى يَقْرَأَهُ الصَّبِيُّ وَالْأَعْجَمِيُّ فَلَا يَعْمَلُونَ بِهِ»[2].



فالسُّؤال كيف لهذه السُّورة الواحدة أن غيَّرت هذا الرجل، فصار من خيار الصَّحابة؟! فهذا من قوة القرآن!!

وقد التفت الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أمرٍ يحفِّز على تعلُّم القرآن فقال: «واللهِ ما أنزل اللهُ آيةً إلا أحبَّ أن يُعلمَ فيمَ أُنزلت وماذا عُني بها؟»[3].

وبعد بيان أوجه قوة القرآن نقول: إنْ لم يُحدث القرآن بك تغيُّرًا؛ فاعلمْ أن بينك وبينه حجاب!! وهذا ما ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عمن

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٠٣).

(٢) أخلاق حملة القرآن، ص(٣٧).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(٩٧)، والدر المنثور، (٢/ ٦٩).



لم يتأثروا بالقرآن فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]، والأكنة هي الأغطية، وهُمْ قد اعترفوا بذلك فقالوا: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

ومن رحمة الله ﷻ أن رَبط على قلوب المؤمنين وإلا فإنَّ الوعد والوعيد في القرآن لا تحتمله القلوب الحية، فمَن يتحَمَّل ما ذكره الله عن غضبه وعذابه وسخطه، فمَن يقوم لغضب الله، وإنْ تكلَّم الله عن الجنة ونعيمها ورضاه فمَن يتحَمَّل شوقه لها، وطيران قلبه لها، كما قال الدَّاراني: «رُبَّمَا أَقَمْتُ فِي الْآيَةِ الْوَاحِدَةَ خَمْسَ لَيَالٍ، وَلَوْلَا أَنِّي بَعْدُ أَدَعُ الْفِكْرَ فِيهَا مَا جُزْتُهَا أَبَدًا، وَرُبَّمَا جَاءَتِ الْآيَةُ مِنَ الْقُرْآنِ تُطِيرُ الْعَقْلَ؛ فَسُبْحَانَ الَّذِي رَدَّهُ إِلَيْهِمْ بَعْدُ»[1].



فالاطمئنان أثناء قراءة الآيات القرآنية ناتجٌ عن أحد أمرين: إما تثبيت من الله، أو غفلة في قلوبنا عن معاني القرآن.. فأيُّهما أقرب لحالنا؟!

إنَّ ما يذكره أهل العلم من مقدمات قراءة القرآن كما ذكره الآجريُّ: «بَابُ أَدَبِ الْقُرَّاءِ عِنْدَ تِلَاوَتِهِمُ الْقُرْآنَ مِمَّا لَا يَنْبَغِي لَهُمْ جَهْلُهُ»[2]، وما ذكره النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في (التبيان في آداب

---

(١) تهذيب الحلية، (٣/ ١٨٥).

(٢) أخلاق أهل القرآن، ص(١٤٥).

حملة القــرآن) مثل: اســتعمال الســواك عند قــراءة القرآن، واســتحباب الوضــوء، وانتقاء أماكن قــراءة القــرآن، وكيفية الجلوس عند قراءة القرآن، واســتعاذة والبســملة، والأوقات المختارة للقراءة وغير ذلك.. كلُّ ذلك هو تهيئة للدخول على القرآن، وبيــان من أهل العلــم إلى أن الدخــول للقرآن ليس كالدخول لغيره مــن الكتب، فتتهيَّأ للدخــول للقرآن كما تتهيَّأ للدخول على ذي شأن مهيب جليل، فإذا انصبغ القلبُ بتعظيم القرآن عند ذلــك قرأ القرآن علــى كلِّ أحوالــه كما هو حال المصطفى ﷺ؛ فقد كان يقرأ وهو في حجْرِ عَائشةَ رضي الله عنها[1].

ومن قوة القرآن عند الصَّحابة رضي الله عنهم الأثر الذي أخرجه الإمام مســلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّــا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قَالَ: فَاشْــتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُــولِ اللهِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُــولَ اللهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَيْ رَسُــولَ اللهِ، كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدِ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ

---

(١) صحيح مسلم، (٣٠٢).



هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ، ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ»[1].

ركّز في آخر جملة في الحديث (**ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ**) ما معناها؟ هل المعنى عرفوا قراءتها؟ هل يعقل أنهم لم يعرفوا نطقها ثم عرفوا؟ كلا، بل المعنى أعجب من ذلك: فهُمْ لم يستطعوا أن ينطقوا بها؛ لصعوبة معناها على أنفسهم، فأصواتهم ترتعد وألسنتهم تمتنع لقوة معناها وشدته، كما لو تقرأ خطابًا في قتلك وهلاكك! ولهذا بركوا على الركب وهم الرجل الأقوياء والأشداء، لكن جاءهم ما هو أقوى منهم وأشد، كلام الله، فلما أذعنوا وانقادوا وقالوا: سمعنا وأطعنا كان الجزاء أن أنزل الله الآية بعدها التي فيها المغفرة والعفو والنصرة على الكافرين.

كمْ قرأنا هذه الآية ولم يأتنا ولا عشر المعشار من هذا الشعور، فلماذا يا ترى؟! لأننا لم نفهم معناها ولم نعلم أنه

---

(١) المصدر السابق، (١٢٥).



هلاك لنا؛ وهم ﷺ فهمـــوا معناها وأيقنوا بـــه، وعرفوا عظمة قائله وصدقه، فخُذْ الآن معنى الآية: أي أن الله سيحاسبنا عما أعلناه وأظهرناه من أعمالنا، وسيحاســبنا علـــى ما نخفي في أنفسنا مما ســترناه عن الناس!! وهذا ما لا طاقة لنا به، ولهذا برك الصحابة على الركب من هوله، فمن يقدر على أن يحاسبه الله على ما يخطر في باله مما يخفيه عن الناس، فماذا يوجد في خواطرنــا ونياتنـــا وما هممنا بـــه وما عزمنا عليـــه؛ كلُّ ذلك سيحاسبنا الله عليه، وهذا شأنه عظيم كبير، فكان المفترض على الصَّحابة ﷺ أن يقولوا: ســمعًا وطاعةً لربنـــا غفرانك لذنوبنا وســترك علينا وإليك المصير والمرجـــع والمآب، فنحن إليك صائرون، وأنت قادرٌ علينا، لكن غلبهم الخوف من الله، فقالوا عند ذلك: كلفنا من الأعمال الصالحة ما نطيقه ونجاهد أنفسنا عليه، أما المحاســبة على ما نخفيه فهذا ليـــس عليه به صبر، ولا نقوى عليه، وطلبوا من النبـــي ﷺ وهو الرحيم بهم وبأمته أن يســمع منهم قولهم؛ حيث ثقلت ألســنتهم عن النطق بهذه الآية الكريمـــة مع محبتهـــم لـــكلام الله، لكن لشـــدتها على أحوالهم، فاستغل النبي ﷺ هذا الحديث ليزيل أيَّ تشابه بينهم وبين بني إسرائيل ولو كان التشابه غير مقصود، فقال: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ





قُولُوا: سَـــمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»، فاستجاب الصحابة ﵃ لذلـــك وقالوا: ســـمعنا وأطعنا، ويفعـــل الله بنا ما يشاء، فنحن في دار امتحان وابتلاء، وكما أعاننا على تكاليف الشريعة ســـيعيننا ربنا، فتحقَّق لهم عبوديات قلبية عظيمة منها: التســـليم والإذعان والانقيـــاد مهما كان الأمـــر، وهذا مقتضى العبودية التامة، ألا يجادل العبد ولا يتردد في التنفيذ، وسيجعل الله بعد عسرٍ يسرًا، فَعفَا اللهُ ﷻ عنا وعنهم ونسخها بقوله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقـــرة: ٢٨٦].. فتخيَّلوا لو لم يجثُ الصحابة ﵃ على الركب، تخيَّلوا لـــو لم يرَ الله وهـــو العليم هذا الخوف الشـــديد الذي رحمهم بـــه ورحمنا معهم بـــه، فلله الحمد ولـــه الفضل على رحمته بعباده.

ومن قوة القـــرآن أنه يقدر على إذابة الهـــم والحزن والغمِّ المتغلغل في النفوس، ففي الحديث: «**أَنْ تَجْعَـــلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَـــدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَـــابَ هَمِّي**»[1]، وابن القيم ﵀ يعلِّق على هذا الحديث فيقـــول: «وَلما كَانَ الصَّدْر

(١) أخرجه أحمد، (٤٣١٨)، والحاكم، (١٨٧٧)، وقال: «صحيح على شرط مسلم».



أوسع من الْقلب كَانَ النُّور الْحَاصِل لَهُ يسري مِنْهُ إِلَى الْقلب؛ لِأَنَّهُ قد حصل لما هُوَ أوسع مِنْهُ، وَلما كَانَت حَيَاة الْبدن والجوارح كلهَا بحياة الْقلب تسري الْحَيَاة مِنْهُ إِلَى الصَّدْر ثمَّ إِلَى الْجَوَارِح سَأَلَ الْحَيَاة لَهُ بِالربيعِ الَّذِي هُوَ مادّتها، وَلما كَانَ الْحزن والهم وَالْغَم يضاد حَيَاة الْقلب واستنارته سَأَلَ أَن يكون ذهابها بِالْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهَا أَحْرَى أَلَّا تعود، وَأما إِذا ذهبت بِغَيْر الْقُرْآن من صِحَة أَو دنيا أَو جاه أَو زَوْجَة أَو ولد؛ فَإِنَّهَا تعود بذهاب ذَلِك وَالْمَكْرُوه الْوَارِد على الْقلب إِنْ كَانَ من أَمر مَاض أحدث الْحزن، وإِنْ كَانَ من مُسْتَقْبل أحدث الْهم، وَإِنْ كَانَ من أَمر حَاضر أحدث الْغم»[1].



ومن قوة القرآن أنه يُكتفى به مع السُّنة في تحصيل العلم كلِّه، وهو ما فعله ابن مسعود رضي الله عنه، فقد أخبر عنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: «قَرَأَ الْقُرْآنَ ثُمَّ وَقَفَ عِنْدَهُ، وَكَفَى بِهِ»[2]، ومعنى وصف عليٍّ رضي الله عنه أن ابن مسعود رضي الله عنه اكتفى بعلم القرآن وما فيه، وعمل على تثوير معاني القرآن فاكتفى بذلك وأصبح عالم الصحابة، ونفع الله به الأمة كلها.

(١) الفوائد، ص(٢٦).

(٢) أخرجه الحاكم، (٣/ ٣١٨)، وصحَّحه ووافقه الذهبي.



القرآن سببٌ لحفظ الكون كلِّه:

إذا ذهب القرآن من الأرض ذهبت بركة الأرض كلها، وآذنت الحياة بالزوال، فالمؤمن وذكر الله هو بركة هذه الأرض، والدنيا كلها ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، ولو يعلم المخالفون للقرآن، المبتغون إزالته ـ لو يعلمون أنهم بأفعالهم هذه يضرون الأرض كلَّها، فإنَّ القرآن إذا رُفِعَ قامت الساعة، وقد أخرج الدَّارميُّ عدة آثار عن ابن مسعود رضي الله عنه ـ وهو من أصحاب القرآن ـ قوله: «أَكْثِرُوا تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ, قَالُوا: هَذِهِ الْمَصَاحِفُ تُرْفَعُ, فَكَيْفَ بِمَا فِي صُدُورِ الرِّجَالِ؟ قَالَ: يُسْرَى عَلَيْهِ لَيْلاً فَيُصْبِحُونَ مِنْهُ فُقَرَاءَ، وَيَنْسَوْنَ قَوْلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ, وَيَقَعُونَ فِي قَوْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَشْعَارِهِمْ, وَذَلِكَ حِينَ يَقَعُ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ»[١].

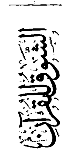


ورفع المصاحف يتوافق مع هدم الكعبة[٢]، وبزوالها تزول شعائرها من الهدي والشَّهر الحرام الذي هو قيامٌ للناس المذكور في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا

---

(١) سنن الدارمي، (٣٦٦١)، وانظر تخريجه مطولًا في النسخة المحققة بإشراف الدكتور سعد الحميد (٢/ ٣٣٥)، وقال فيه: «فالحديث صحيح لغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه».

(٢) أخرجه مسلم، (٢٩٠٩).



﴿لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ [المائدة: ٣٧]، ثم تأتي الريح التي تقبض أرواح المؤمنين[1]، وبعدها بقليل تزول الدُّنيا وتطلع الشمس من مغربها؛ فهل يا تُرى أن رفع المصاحف يتم فجأةً؟ بينما الناس حافظون قارئون عاملون وإذ بالمصاحف تُرفع؟! ليس كذلك، بل يسبق رفع الآيات من المصاحف رفعه من الصدور، ويسبقه رفعه من واقع الحياة، فلا يعمل الناس بالقرآن، فحقيقة الرَّفع حدثت حينما تُرك العمل بالقرآن ولكن الناس لا يشعرون؛ لأن مقاييسهم هي المقاييس الحسية التي يشاهدونها ويرونها، فالجيل الذي ترك العمل بالقرآن هو الجيل الممهد للجيل الذي ترفع فيه المصاحف، وهذا من عزة القرآن؛ فالقرآن لا يبقى في أرض لا يعمل فيها ويهمل ويترك، وهو كذلك يفعل مع الصدور التي لا تعمل به، فسرعان ما يغادرها ويتركها، نسأل الله لطفه بنا.



وقول ابن مسعود رضي الله عنه: «فيصبحون منه فقراء» إشارة منه إلى أن ترك القرآن هو الفقر الحقيقي والذي لا نسبة بينه وبين فقر المال، لكننا لا ندرك ذلك لتعلقنا بالمحسوسات، وإلا فأيُّ فقر أعظم من فقر قلب لا توجد فيه آية؟!

---

(١) أخرجه مسلم، (٢٩٣٧).



وهنا قضية غريبة تؤخذ من كلام ابن مسعود ﵁: ألم يكن ابن مسعود ﵁ يعلم أن هذا سيحدث آخر الزمان؟ إذن؛ لماذا يشغل الناس بأمر سيحدث في مستقبل الأيام؟ لماذا يفسد على الناس فرحتهم وقراءتهم للقرآن؟!

والجواب يؤخذ من شخصية ابن مسعود ﵁ نفسه؛ فهو من أهل القرآن وبينه وبين القرآن صحبه ويعرف القرآن جيدًا، يعرف أن وقت رفع المصاحف يسبقه خطوات شيطانية وهي: هجر قراءته، ثم هجر معانيه، ثم هجر العمل به، ولهذا أوصى بكثرة التلاوة التي تصدُّ الخطوة الشيطانية الأولى، وأوصاهم بالقراءة ولم يوصهم بالمعنى؛ لأن الناس متوافرون على فهم المعنى في ذلك الوقت، كما أن علم الخشوع والذي هو أساس القرآن رفع أول الزمن، فحذَّرهم الصحابة ﵁ من ذلك.



وما قرَّره ابن مسعود ﵁ يقرِّره غيره، فقال عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرو بْنِ الْعَاصِ ﵄: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَرْجِعَ الْقُرْآنُ مِنْ حَيْثُ نَزَلَ، لَهُ دَوِيٌّ حَوْلَ الْعَرْشِ كَدَوِيٍّ النَّحْلِ يَقُولُ أُتْلَى وَلَا يُعْمَلُ بِي»، ونلاحظ أن قراءته لم تهجر، والقرآن يعترف بذلك، إلا أن المهجور هو العمل به المبني على فقهه ومعرفة معانيه وتدبره.



وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَمْ يَبْعَثِ اللهُ رَسُولاً إِلَّا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا، فَإِنْ قَبِلَهُ قَوْمُهُ وَإِلَّا رُفِعَ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ [الزخرف: ٥] لَا تَقْبَلُونَهُ فَنُلْقِيهِ عَلَى قُلُوبٍ بَقِيَّةٍ، قَالُوا: قَبِلْنَاهُ رَبَّنَا، قَبِلْنَاهُ رَبَّنَا، وَلَوْ لَمْ يَفْعَلُوا لَرُفِعَ وَلَمْ يَنْزِلْ مِنْهُ شَيْءٌ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ».







القسم الثالث
الفرح بالقرآن

الفرح بالقرآن:

جاءت صيغة الحصر في قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، لتحصر لنا ما يُفرح به، فتمام الحب لله أن تفرح بما فرح بـه مولاك، والآية أمرتنا بالفرح بفضل الله ورحمته، وأهل العلم وإنْ اختلفوا في تحديد المقصود بفضـل الله ورحمته، إلا أن أحدهما هـو القرآن[1]، فالقرآن أعظم ما يفرح به، ولو تحقَّق الإيمان في قلوبنا لم نفرح بشيءٍ غير القرآن، وما من شيءٍ يستحقُّ الفرح إلا وفي القرآن أمثاله ومثله معه، بل لا مقارنة بينهما.



ويفهم من الآية: أن غير فضل الله ورحمته القرآن لا يستحق الفرح، وهذا يجعلنا نُغَيِّر تصورنا عن الفرح، فليس كلُّ ما يُفرح النفس يكون فرحًا صحيحًا ولو سُمِّي فرحًا، إنَّ الشريعة تحدِّد لنا مجالات الفرح؛ لأننا عبيد لله وهو يملك مشارعنا وأفراحنا

---

(١) انظر: الأقوال في تفسير الطبري، (١٢/ ١٩٤).



وكل شـيء منا، فليس الأمر متـروكًا لهواك يفرح بما يشـاء! فكيف وبعض ما نفرح به يغضب المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ؟!

وقـد وصـف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المؤمنين بقولـه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد: ٣٦]، وفعل يفرحون فعل مضارع يفيد استمرار الفرح، والآية تصف شعور المؤمنين من أهل الكتاب وغيرهـم حينما تُنزَّل عليهم آيـة من ربهم، فهل انقطع هذا الشعور باكتمال نزول القرآن؟



إنَّ المؤمن الذي يتلذذ بقراءة القرآن، ويفهم معانيه، ويتأمله ويتدبره، ويجاهد نفسه على العمل، ويرزق الهداية، يأتيه شعور الفرح بما سـيقرأه من آيات ورده، والفرح بمـا يفتحه الله من معانٍ على قلبه وذهنه، والفرح أكثر حينما يعينه الله على العمل والثبات عليـه، فلا يزال في فرح إلى فـرح، وفي مقام البرزخ يَفرح بمحاجَّة القرآن عنه كما ورد في سورة الملك التي تشفع لصاحبهـا[1]، وفي عرصـات القيامـة يَفرح بشـفاعة القرآن لأصحابه، فقل لي: مَن يسـتحق أن يُفرح بـه غير هذا الكتاب المبارك النافع؟!

---

(١) رواه الترمذي، (٢٨٩٣)، وقال: «حديث حسن»، وابن حبان في صحيحه (٦٩)، والحاكم (١/ ٥٦٥) وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

إنَّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتتبعون الوحي تَتَبُّع العطشان الولهان، تَتَبُّع مَن علم أنه لا شفاء له إلا بهذا الكلام، وتتبعهم له نابعٌ من محبتهم للمتكلم به سبحانه وتعالى.

ومن فرح الصَّحابة رضي الله عنهم بالقرآن ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما: «إني لآتي على الآية من كتاب الله فأودُّ أن النَّاس كلَّهم يعلمون منها ما أعلم»[1]، مثل هذا الأثر يصحِّح النية لدينا في فقه التفسير ومعرفة معاني القرآن بأن نتمنى أن يعلم الناس منها ما تعلم.



إنَّ الفرح بالقرآن فرعٌ عن الفرح بالله، فمَن فَرِحَ بالله فَرِحَ بكلامه، وعلى قدر محبة الله سبحانه وتعالى يكون الفرح بكلامه، ولهذا حصرت الآية الفرح في فضل الله ورحمته؛ لأن الفرح لا يكون إلا بالله وحده.

والفرح بالقرآن فرعٌ عن محبته، فالمؤمن عليه أن يُحب القرآن، فهو صفة الله، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «مَن أحب القرآن فهو يُحبُّ الله ورسوله»[2]. وعلى هذا استنتج ابن القيم رحمه الله أن محبة القرآن علامة على محبة الله فقال: «محبة

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(١٠٢).

(٢) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير)، (٨٦٥٧).



كلام الله؛ فإنه من علامة حب الله، وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة القرآن من قلبك»[1]، فإذا أحبَّ القرآن تلذَّذ بقراءتـــه، واجتمع على فهمه ووعيه، وإذا لم يوجد الحب؛ فإنَّ إقبال القلب على القرآن يكون صعبًا[2].

ليس الفرحُ بالقرآن مجرد شـــعور نفســـي، إنما هو محركٌ للإرادة والهمة نحو القرآن، فلن تجد العبدَ الفَرِحَ بالقرآن هاجرًا له ولمعانيه، ســـتجده مُتَّبِعًا لأوامره ونواهيـــه، معظمًا لأخباره وقصصه، يأنس به، وفيه سلوةُ أحزانه، من فرحه بالقرآن يرى أن كلَّ شـــيءٍ في الكون مصدقٌ لمـــا في القـــرآن، فالقرآن آيات مســـطورة والكون آياتٌ مخلوقة، والله لـــه الخلق والأمر سبحانه وتعالى، ومن فرحه بالقرآن أنه يكتفي به وبالسُّنة عن غيرها من العلوم، ويجعلها الحاكمة على غيرها، ومن أعلى مقامات الفرح بالقرآن أن القارئ له يتألم لانتهاء الســـورة، ويتمنى لو أنها أطول من ذلك، كما أن الفـــرح بالقرآن يقتضـــي ورود خواطر وواردات على الذهن في كلِّ مرةٍ تقرأ فيها القرآن غير الخواطر الســـابقة مما هو من اللطائف القرآنية والأسرار البديعة.



---

(١) الجواب الكافي، ص(٥٥٠).

(٢) الإيمان بالقرآن الكريم: طه عبد الرحمن، ص(٧٢).

ما معنى أن القرآن عزيز؟

من أوصاف القرآن التي وصفه الله سبحانه وتعالى بها أنه ﴿لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، ومعنى ذلك أن للقرآن عزة، وأنه يورث العزة لأهله وأتباعه، وأما عزة القرآن فمن دلالاتها أنه لا ينفتح على مَن أعرض عنه ولا يستجديه، فمَن أعرض عن القرآن أعرض القرآن عنه، ومَن أقبل على القرآن تَمَنَّع منه القرآن اختبارًا وابتلاءً ليعلم الله ـ وهو العليم ـ صدقه في إقباله، ومَن زاد إقباله على القرآن أعطاه القرآن بعض أسراره، وسر ذلك أن القرآن نورٌ، فما دام أن هناك ظلمة في القلب فلا يتنزل القرآن إلا على قدر المحل القابل للنور، فإذا ذهبت الظلمات حلَّ النور في القلب وأقبل القرآن عليه وأعطاه من أسراره وكنوزه وأُلِين لمن يتلوه، وجال في فكره وعقله وقلبه من أنواع الحِكم والعِبر والهدايات ما يتحسر على فوات عمره بدونها، كما قال أمير المُؤمِنِينَ عُثمَانُ بنُ عَفَّانَ رضي الله عنه: «لَوْ أَنَّ قُلُوبَنَا طَهُرَتْ مَا شبِعت من كلام رَبِّنَا, وإِنِّي لَأَكْرَهُ أن يَأتيَ عَلَيَّ يومٌ لَا أَنظرُ في المصحف»[1]، فانظر لأمير المؤمنين كيف ربط بين طهارة القلب والإقبال على القرآن، فليست القضية ـ إذن ـ مرتبطةً بفراغ الوقت إنما بطهارة القلب.

(١) أخرجه البيهقي في (الأسماء والصفات)، (٥٢٤).



وهناك ثلاث فئات من المسلمين أُمروا بقراءة القرآن مع ضيع أوقاتهم وهُمْ المذكرون في قول الله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].. فكم الوقت من الفراغ الذي سيجده المريض، أو المغترب لطلب الرزق مع بعد الشقة، والمجاهد الذي يطلب الموت، ومع هذا أمروا بقراءة القرآن مما يدلُّ على أن القرآن لا يرتبط بفراغ الوقت وإنما بحاجة القلب له واضطراره له.



وأول عقوبات الله سبحانه وتعالى لنا في ابتعادنا عن معاني القرآن هو انصرافنا عن فهمه والحرص على ذلك، فلا تجد في قلوبنا حرصًا على فهم معاني القرآن، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، والجزاء دائمًا من جنس العمل، فإنْ لم نتعاون وإلا فهناك عقوبات أخرى كهجرنا الاستشفاء به مع قراءتنا له، وهجرنا تحكيمه مع حاجتنا إليه، وآخر العقوبات - إنْ لم نتعاون على التوبة - هو صدنا عن قراءته وإقامة حروفه.

فانظرْ كيف أن القرآن يعامل الناسَ على قدر تعاملهم معه، فتفسير ضعف انتفاعنا بالقرآن هو: أننا معاقبون بذلك، وإلا فمعاني القرآن مبذولة واضحة يسيرة في أغلبها، نعم هناك فارق كبير بين مَن يعرض عن القرآن غفلةً وتكاسلاً، وبين مَن يعرض

عنه استهانةً وتكذيبًا، ولكن النتيجة في الحالتين واحدة وهي عدم الانتفاع بالآيات، فإنه لا ينبغي لأحد أن يأمن على نفسه العقوبات التي توعد الله أولئك المعرضين عن كتابه[1].

فأحد مكامن المشكلة هي أننا نقرأ آياتٍ في صفات الكافرين فنجعلها خاصة بهم وليست متعدية إلى غيرهم، وليس لغيرهم نصيبُ منها، فقول الله ﷻ عن الكافرين: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [الكهف: ٥٧]، نقرأها ونمر عليها سريعًا؛ لأنها لا تعنينا!! فهي في قوم ذكروا بآيات الله ولم يسلموا، وهذا صحيح إلا أن الآية عامة تشمل كلَّ مَن ذُكِّر بآيةٍ من آيات ربه فأعرض ولم يبالِ ولم ينقاد للعمل، ونسي ما سلف من ذنوبه، ونحن من هذا الصنف، فقد ذُكِّرنا ببعض المواعظ عن المنهيات فارتكبناها، وذُكِّرنا ببعض المأمورات فتهاونا، وظلمنا لأنفسنا كبير كثير؛ لأننا نؤمن بالقرآن ومع هذا أعرضنا.

والإمام سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يلحظ هذا الملحظ في قوله الله: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، قال: «أَنْزِعُ

(١) غربة القرآن، ص(٤٤).



عَنْهُمْ فَهْمَ الْقُرْآنِ فَأَصْرِفُهُمْ عَنْ آيَاتِي»[1]، فنزعُ فَهْمِ القرآن ـ إذن ـ هو عقوبةٌ يعاقب الله بها.

وتأملوا قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، تأملوا آخر الآيــة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ هل ناداك أحدٌ من مكان بعيد فلم تفهم ما يقوله وبالتالي لم تستجب له، ولم تعمل به، بل زهدت فيه؟! هذا حال مَن قرأ القرآن ولم يفهم معانيه يكون القرآن بالنسبة له كالذي يُنادى من مكان بعيد، يسمع صوتًا ولا يفهم قولاً، والآية تدلُّ على أن على هذا المُنادى من مكان بعيد كان الحل سهلاً بالنسبة له وهو أن يقبل على ذلك الدَّاعي المنادي ويسمع منه من قُرب، فكذلك قارئ القرآن كان واجبًا عليه أن يقترب من القرآن ليسمعه عن قُرب قلب.. هذا كلُّه من عزة القرآن.



ولفظ العزة للقرآن يشعر بالخضوع للقرآن كما يفعله مَن له حاجة عند مَن هو عزيز ويستحق العزة، ومن عزة القرآن أن القلب المحجوب بالشهوات، والمفتون بتتبعها، والمتبع لهواه، لن يجد القرآن إلى قلبه سبيلاً لإصلاحه حتى يزيل هذه

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٧٥)، وتفسير الطبري، (١٠/ ٤٤٣).



الحُجُب، ويرفع هذه الموانع، عند ذلك يفتح طريق لأن يدخل القرآن وهو عزيـــز لهذا القلب فينير جوانبـــه، ومن عزة القرآن أيضًا أنه لا يرضى أن يساكنه في القلب فتن وأمراض بل يطردها فلا يبقيها بجواره ما دام أن صاحبه متدبر له مُتفكِّرًا في معانيه، والعجيب حقًّا أن أيَّ جزءٍ من أجزاء القلب متى خالطه القرآن عادت إليه الحياة بعد موته، فيحيا حياة جديدة بإذن الله، فالقوة الغضبية الموجودة في القلـــب والتي كانت تنصرف للعصبيات والجاهليات بعدما خالطها القرآن أحياها فانصرفت للغيرة على حرمات الله، والهمـــة العالية التي تقود صاحبهـــا إلى المعاني العظيمة مما يحبها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



القرآن خاتم الرسالات والكتب:

منذ إهباط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ يرســـل الله رُسولاً كلما انحرفت البشرية عن دين الله، ويعطيه من المعجزات والآيات ما يؤمن عليه البشر، وكلما أنزل كتابًا على أمة من الأمم أتبعه بكتاب آخر لأمة أخرى، ومنذ مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ينزل الله ولن ينزل إلا القرآن حتى قيام الســـاعة، مما يدلُّ على أنه ســـيكون كافيًا للناس جميعًا وليغطي الفترة إلى قيام الساعة، وهذا ليس لكتاب غيره.



وهنا عدة أسئلة:

كم قدَّر الله ﷻ شخصًا سيعيش ما بين مبعث النبي ﷺ إلى قيام الساعة من الجن والإنس؟ ألم يحدث طوال هذه الفترة أمراض إيمانية وقلبية وسلوكية؟ ألم تسْتَجِد للناس مع تجدُّد الأجيال حاجاتٌ؟ ألم تختلف حياة أهل الجيل الواحد حسب ظروفهم؟ مع هذا وغيره إلا أن القرآن كافٍ لهم جميعًا، ولهذا جعل الله ﷻ كلامه بلُغة عربية عذبة سلسلة، بحيث يستطيع أيُّ إنسان أن يفهم الحقائق الأساسية مهما كان حظه من الثقافة، وجعل الله رسالة القرآن رسالة موجزة ليسهل حملها وحفظها وقراءتها كما قال: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧]، ولكي يتم دوام الاستفادة منها كان من الضروري أن يداوم المسلم على قراءتها يوميًّا، فكان التحفيز وشحذ الهمم لذلك برصد الجوائز لكلِّ مَن يقرأ حرفًا، فيكون ذلك دافعًا لقراءتها، ولقد جعل الله مواضيعها الأساسية مكررة في كثير من السُّور بأساليب مختلفة لتتم التذكرة في أيِّ موضع يلتقي فيه المسلم مع القرآن[1].



هذه المنزلة العظمى له تُحتِم وجوب العودة للقرآن تحقيقًا للمقصود الذي وضعه الله، وسؤال آخر يعزِّز ما سبق وهو:

---

(١) العودة إلى القرآن، ص(١٠) باختصار.



أليست وفاة النبي ﷺ وذهاب شخصه مع بقاء الكتاب الذي أنزل عليه دليلاً على أن هذا الكتاب العزيز قادرٌ على إخراج مؤمن يعبد الله كما فعل بالصحابة رضي الله عنهم؟

إنَّ النبي ﷺ بداية الإسلام قَصَرَ الصحابة رضي الله عنهم على القرآن وحده، وأمرهم أن يمحوا ما عداه، بل نهاهم عن كتابة حديثه ﷺ، ولم يكن هذا النهي إلا لأجل أن يزال كل حاجز بين القرآن وقلوبهم، ولتُصنع قلوبهم على معاني القرآن، فهو يريد أن الذي يسقي قلوبهم هو القرآن وحده، وقد شُبِّه القرآن بالغيث وهو الماء الطهور الذي لم يخالطه غيره، وهذا أحد مميزات الصحابة رضي الله عنهم أنهم لم يخلطوا مع نصوص الوحي غيرها، فغسلت قلوبهم وطهرتها.



القرآن مأدبة[1]:

جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه - وهو صاحب القرآن - تسمية القرآن بمأدبة الله فقال: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللهِ؛ فَتَعَلَّمُوا مِنْ مَأْدُبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[2].

---

(١) وهذا الاسم صالح لتسمية بعض مشاريع القرآن بـ(مأدبة الله).

(٢) أخرجه البزار (٢٠٥٥)، والدارمي في (فضائل القرآن)، (٢/ ٤٣١)، وقال الهيثمي في (المجمع)، (١/ ٢٨): «رجاله موثوقون»، وضعَّفه الألباني في (الضعيفة) (١٤/ ٧٨٥).



وقوله مأدبة الله يحتمل مقصودين هما[1]:

(أ) مأدُبة ـ بِضَم الدَّال: والمراد الصَّنِيع يصنعه الرجل فيدعو النَّاس إِلَيْهِ، فتأويل الحَدِيث: أَنه شبَّه الْقُرْآن بصنيع صنعه الله للنَّاس لَهُم فِيهِ خير وَمَنَافع ثمَّ دعاهم إِلَيْهِ.

(ب) مأدَبة ـ بفتح الدَّال: وهو من الْأَدَب، والمراد أن القرآن فيه تعاليم الأدب.

والقرآن جمع الأمرين، فهو غذاء للقلوب، والله يدعونا لنشبع جوعنا منه، ومَن لم يُجب الدعوة لمأدبته فسيبقى جائعًا ولن يشبعه شيءٌ، وكذلك في القرآن تأديب العبد المؤمن، والآداب التي يسير عليها في تعامله مع ربه ومع الخلق، وعلى هذا؛ فينبغي أن يكون سهلاً ميسورًا.



ومن أعجب يسر القرآن وسهولته ما أشار إليه الدكتور دراز في كتابه العظيم (النبأ العظيم) بقوله: «وهاتان غايتان أخريان متباعدتان عند الناس، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما

---

(١) غريب الحديث لابن الجوزي، (١/ ١٥).



لا تطيقه عقولهم، فلا غنى لك إنْ أدرت أن تعطي كلتا الطائفتين حظها كاملاً من بيانك أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال، فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء وإلى الأذكياء والأغبياء وإلى السوقة والملوك، فيراها كلٌّ منهم مُقَدَّرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته، فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم، فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم، لا يلتوي على أفهامهم ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللُّغة، فهو متعة العامة والخاصة على السَّواء ميسر لكلِّ مَن أراد، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]»(١).



والقلب يتأثر بالأعمال الصالحة إلا أن تأثره بالقرآن لا يعادله شيء؛ لأن القرآن أُنزل للقلب كما قال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤]، ولهذا تتابع السَّلف رحمهم الله على هذه المأدبة واستغنوا بها عن غيرها، فهذا ابن مسعود رضي الله عنه قال: «قِرَاءَةُ القُرآنِ أَحبُّ إليَّ مَن الصَّومِ»(٢)، والصُّومُ من العبادات التي استأثر الله بأجرها.

---

(١) النبأ العظيم، ص(١١٣).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة، (٣٠٧١٤).



ومن فقه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قارن مقارنةً لا أظن أحدًا يقارن مثلهـا؛ حيث قال: «**لَوْ بَاتَ رَجُلٌ يُنْفِقُ دِينَارًا دِينَارًا، وَدِرْهَمًا دِرْهَمًا، وَيَحْمِلُ عَلَى الْجِيَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَبَاتَ رَجُلٌ يَتْلُو كِتَابَ اللهِ حَتَّى يُصْبِحَ مُتَقَبَّلاً مِنْهُ، وَبِتُّ أَتْلُو كِتَابَ اللهِ حَتَّى أُصْبِحَ مُتَقَبَّلاً مِنِّي، لَمْ أُحِبَّ أَنَّ لِي عَمَلَهُ بِعَمَلِي**»(١)، ولنعلم أن قول عبد الله رضي الله عنه ليس على سبيل المبالغة إنما نابعٌ من رجل فقيه في عبودية الله، لأن الله لم يُتَعَبَّد إليه بمثل كلامه.



ومن فضيلة القرآن عند الله سبحانه وتعالى أن المَلك لا يكتب الخطأ في القرآن، فإذا قرأ قارئ القرآن وأخطأ عن غير عمدٍ؛ فإنَّ المَلك الذي يكتب الأعمال يكتب الآية كما أُنزلت وليس على ما أخطأت(٢)، وهذا لها حكم التعتعة الشَّاقة على المؤمن.

ومن جلسات الأُنس بين الصَّحابة رضي الله عنهم ما حكاه أبو الأحوص رضي الله عنه قال: «**كُنَّا فِي دَارِ أَبِي مُوسَى مَعَ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ عَبْدِ اللهِ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ فِي مُصْحَفٍ، فَقَامَ عَبْدُ اللهِ، فَقَالَ أَبُو مَسْعُودٍ: مَا أَعْلَمُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم تَرَكَ بَعْدَهُ أَعْلَمَ بِمَا**

---

(١) المصدر السابق، (٣٠٧١٢).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(١٠٦)، وفضائل القرآن لابن كثير، ص(١١٠).



أَنْزَلَ اللهُ مِنْ هَذَا الْقَائِمِ»[1]. فانظرْ لهذه الجلسة التي مُلئت أُنسًا وبهجةً، ينظرون فيها في المصحف، ويتحدَّثون به، فكمْ نحتاج في جلساتنا لمثلها بأن يكون محور كلامنا آية من كتاب الله وما فيها من المعاني والهدايات.

القرآن وُحْدَة قياس:

مِنْ تغلغل القرآن في حياة الصحابة ﵃ أنه أصبح وُحدةَ قياسٍ لهم يقيسون على ضوئه أمور حياتهم، فقد كان العرب يؤقتون أوقاتهم بحلب الناقة ونحر الجزور، فأصبحوا يقولون: على قدر قراءة خمسين آية، وعلى قراءة سورة البقرة، وكان يعلِّمنا كما يعلِّمنا السُّورة من القرآن، فزيد بن ثابت ﵁ يخبرنا أن النبي ﷺ دعاه ليلة لتناول السحور معه، فقيل لزيد: كم بين سحوركم وسجودكم ـ أي: صلاة الفجر ـ قال: قدر خمسين آية[2]، والعجيب حقًّا أن السَّائل سكت ولم يقلْ: قدر كم يعني؟! لأن القرآن أصبح وحدة قياس لهم، فأصبحوا جميعًا يعرفون مقدار خمسين آية، وأتوقع أننا لا نعرف مقدار ذلك اليوم؟!

(١) صحيح مسلم، (١١٣).
(٢) المصدر السابق، (١٠٩٧).





وحُرِز قيــام الصَّحابــة رضي الله عنهم للدُّعاء عند رمــي الجمار في الحج، فحُدد لنا بوحــدة القياس القرآنية، وهــي عدد الآيات والسُّــور، قَامَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما حِينَ رَمَى الْجَمْرَةَ عَنْ يَسَارِهَا نَحْوَ مَا لَوْ شِئْتَ قَرَأْتَ سُــورَةَ الْبَقَرَةِ، وَعَنْ أَبِي مِجْلَزٍ رضي الله عنه فِي حَزَرِ قِيَامِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «فَكَانَ قَدْرَ قِرَاءَةِ سُــورَةِ يُوسُفَ»، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّهُ كَانَ يَقُومُ بِقَدْرِ قِرَاءَةِ سُورَةٍ مِنَ الْمِئِينِ»[1]، وهذه الآثار تدلُّ على تغلغل القرآن في حياتهم حتى أصبح أداة قياس، وهذا لا يكون إلا بعد أن يتعلَّــق الجيلُ بكامله بالقرآن حتى غيَّر القرآن حياتهم.



ودخل القــرآن أيضًا في حياتهــم الاجتماعية حتى أصبح مهرًا للنساء، كما في حديث ســهل بن سعد رضي الله عنه[2]، وأصبح ذلك مَرْضيًّا عنــد الزوجة وأهلها وصاحباتهــا، وهذا التغلغل القرآني في الحياة يصحبه ولا بُدَّ كثرة قراءةٍ ونظرٍ وصحبةٍ.

ولما ذكر جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما حديث الاستخارة قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعلِّمنَا الاستخَارَةَ كَما يُعلِّمنا السُّورةَ مِن القُرآنِ»[3]، فأصبحت طريقة تعليم السُّور منهج يُقاس عليه غيره.

---

(١) سنن البيهقي، (٥/ ٢٤٢).

(٢) صحيح مسلم، (١٤٢٥).

(٣) صحيح البخاري، (١١٦٢).



وهذا عمر رَضِيَ الله عَنْهُ يقول: «تعلَّموا الفرائضَ والسُّنةَ كما تتعلَّمونَ القُرآنَ»(1)، فلم يكنْ شيءٌ يُقَدَّم على تعليم القرآن، وإذا أرادوا أن يجتهد طلاب العلم في فقه باب من أبواب العلم أمروهم أن يتعلَّموه كما يتعلَّمون القرآن.

ثم خلف مِن بعدهم خلوف ـ عفا الله عنهم ـ أضاعوا القراءةَ واتبعوا شهوات الهوى حتى لم يعد القرآن وحدة القياس والذوق عندهم، وتخلف القرآن عن وحدة القياس يدلُّ على تنحيته عن شئون الحياة، فخرج من التغلغل إلى أوقات المناسبات الخاصة كالاحتفالات أو حالات دخول المستشفيات أو غيرها على نطاق محدود.



القرآن هُدى وشفاءٌ:

وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كلامه بقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، وهنا عدة أسئلة: لماذا اقترن الهدى مع الشِّفاء دون غيرهما؟ ولِمَ قدَّم الهُدى على الشِّفاء؟ وهل هذه الهداية والشفاء تحصل بمجرد تلاوة اللفظ دون فقه المعنى؟

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، (١٠/ ٤٥٩)، والدارمي، (٢/ ٣٤١)، ورجاله ثقات.



إنَّ معركة الشيطان مع العبد تدور في مجالين هما: إفساد التصور، وإبطال الإرادة، فالقرآن يصحِّح التصور وهو الهُدى، ويعالج الإرادة وهو الشِّفاء.

فالقــرآن ـ إذن ـ لا يكتفــي أن يدلك علــى طريق الحقِّ والإيمان والخير والفلاح، بل يأخذ بيدك ويعالج أمراضك حتى تتشافى شيئًا فشيئًا فيقودك للعمل كما قادك للهداية، وهذا أحد أوجه اختلاف القرآن عن غيره من كتب الحكمة، وقد اختصر ذلك أبو الدرداء رضي الله عنه فقال موصيًا أهل الكوفة: «أَقْرِئْهُمُ السَّلَامَ وَمُرْهُمْ فَلْيُعْطُــوا الْقُرْآنَ بِخَزَائِمِهِمْ؛ فَإِنَّــهُ يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْقَصْدِ وَالسُّــهُولَةِ، وَيُجَنِّبُهُمُ الْجَوْرَ وَالْحُزُونَــةَ»[1]. إنَّ قوله: (فَلْيُعْطُوا الْقُرْآنَ بِخَزَائِمِهِمْ) هي بمعنى أن يضعوا في أنوفهم خزامة مثل التي توضع في أنف البعير ليُشــد بها، ثم يسلموا تلك الخزامة للقرآن ليقودهم إلى القصد والسهولة والفلاح والخير العميم.



وعند كلمة (شفاء) ينبغي أن نتصور أن الشفاء لا يتم دفعة واحدة، بل ينمو الشفاء كما يزداد النور شيئًا فشيئًا، وقد يتماثل العبد للشــفاء ولا تزال فيه بقية من مرض تــزول مع مداومة العلاج والاستمرار عليه، وكذلك حال القرآن مع صاحبه فهو

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام، ص(٧٢).



يشافيه، وقد تبقى بقية من أمراض خفية يزيلها القرآن إذا تغلغل داخل النفس وأعماقها.

وقد ربطت الآية الهُدى والشِّفاء مع الإيمان مما يدلُّ على أن هناك علاقة بين تحقيق الإيمان وجعل القرآن هدى وشفاء، وهو يُصدِّق ما قاله السَّلف أنهم تعلَّموا الإيمان قبل القرآن، فلنُجدِّد ـ أخي ـ الإيمان في قلوبنا ثم لنقرأ القرآن.

فالقرآن يهدي؛ لكن ما معنى هدايته؟!

إنَّ هداية القرآن هي أن يدلك ويرشدك إلى الله سبحانه وتعالى، فيجيب عن كلِّ سؤال قد يستغله الشيطان للحيلولة بينك وبين الله، فتجد في القرآن أجوبة على الأسئلة الكبرى، وأول ما هدانا القرآن إليه تعريفنا بإلهنا وسيدنا ومولانا، فعرفنا أسماءه وصفاته وأفعاله ومحبوباته ومبغوضاته وسُنته في عباده وكل ما يتعلق بالسِّيد.

ثم يعرفنا القرآن برسل الله ـ عليهم السَّلام، فلأنه سبحانه وتعالى متكبر فلم يكلِّم عباده بنفسه وهو ملك الملوك، بل اختار أفضل عباده وأرسلهم إلى العباد، يخبرونهم عن سيدهم وما يحبه وكيف يتذللون له، ويقومون بخدمته[1]، ومن خلال التعريف بهؤلاء

(١) كان بعض السَّلف يطلق على العبادة خدمة، ولا مشاحة في المصطلح إذا فهم المقصود.



الرُّســـل تتحرَّك الفطرة لمحبتهم والاقتداء بهم، وعلى رأسهم أفضلهم على الإطلاق نبيُّنا محمد ﷺ، والذي تُغطي رســالته الفترة الزمنية إلى قيام الســاعة، مما يقتضي أن يكون على قدر من الصِّفات والتعبُّد ما يوازي هذا الزمن الطويل الممتد، فصلِّ اللهم وسلِّم عليه.

والقرآن يجيب على الأســئلة التي تتعلــق ببداية الوجود ونهايته، فالقرآن ذكر لنا أعمق نقطة في التاريخ وهي خلق أبينا آدم عليه السلام، وأبعد نقطة في المســتقبل وهو دخول الجنة والنار، وذكر لنا ما يهمنا مما هو بين ذلك، ويجيب القرآن عن أســئلة النفس الغامضة المتلونة، وعما حولنا، وكيفية التعامل الصَّحيح معها ليتوافق مــع فطرة الله التي خلق عليهــا الكون، وأعجب ما يفصــل فيه القــرآن قضية الهــوى والتي هــي مدخل عدو الإنســان، فحدَّد القرآن طريقة التعامل معه، ومتى يُطاع ومتى يُعصى؟ وهو أيضًا يذكر نماذج لبشر مثلنا لديهم ما لدينا ومع هذا أفلحوا، فيُحَفِّزنا بقصصهم، ويخوِّفنا من آخرين انحدروا، وكذلك أعاد القرآن وكرَّر ما يتعلَّق بالقلوب وأقسامها وصحتها وأمراضها ما لو تفقَّه فيها عبدٌ مؤمنٌ موفقٌ لتخرج طبيبَ قلبٍ حقيقيًّا، يعالج ما لا يُعالج اليوم في أمراض القلوب.





ومما فصَّل القرآن ـ ليهدينا ـ ذِكْر عدونا الأكبر الشَّــيطان الرَّجيــم، فذكر صفاته وكلامه وأفعالــه وحربه وطرقه ومنهجه ومداخله وكيده وحيلــه وكلَّ ما يتعلَّق به مما لم يترك لنا عذرًا إنْ اغتررنا بعد ذلك به.. كلُّ ذلك لهداية الناس ودلالتهم كما قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ولو ركَّزنا في تلاوة القرآن على الأمر الأول وهو ما يتعلَّق بتعريفنا بمولانا وســيدنا لاكتشــفنا من خلال ذلك إجابة بقية الأســئلة، فمَن عَرِفَ إلهــه حقيقة المعرفة انكشــف له أجوبة الأسئلة الكبرى التي حيَّرت غيره، ومَن عَرَفَ إلهه عَرَفَ نفسه، فَمَن عرف ربَّه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق، ومَن عرف ربَّه بالقدرة التامة عرف نفســه بالعجز التام، ومَن عرف ربَّه بالعز التام عرف نفســه بالمســكنة التامة، ومَن عرف ربَّه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل[1]، وبالتالي عرف أنه مخلوقٌ ليس له غنى عن ســيده، فلا بُدَّ أن يعلِّق عليه اعتماده وعونه، فالله هو المعبود وهو المستعان.

ولم يُفَصِّل القرآن في شيءٍ كما فصَّل في تعريفنا بالله؛ لأن علاقتنا به مبنية على مقدار معرفتنا به، ولهذا عرفنا بنفســه في

---

(١) طريق الهجرتين، ص(٩).



كلٍّ آية وليس هذا من باب المبالغة، وعلى سبيل المثال عندما يتعرَّف الواحد منا على شخص ما معرفة عامة، فإنَّ نظرته له ستكون نظرة عادية، مثله مثل غيره لا تلفت انتباهه، فإذا ما اقترب منه وازدادت معلوماته عنه وعن قدراته وخبراته وشهاداته أو المنصب الذي يتولاه؛ فإنَّ هذا من شأنه أن يزيده احترامًا وهيبةً وتقديرًا لهذا الشخص، مما سينعكس على طريقة تعامله معه، والتي بلا شكٍّ ستختلف كثيرًا عما كان من قبلُ[1].

هذه هداية القرآن، وأما شفاؤه؛ فالمهم أن نعطي القرآن وقتًا ليُحدث فينا شفاءه وأن نستمر على علاجه حتى تزول خفايا الأمراض القلبية.



والشِّفاء لا يحصل بمجرد قراءة اللفظ فقط ولو كان الهدى والشفاء يحصل بمجرد اللفظ الذي لا يفقه معناه لحصل به إذا كان أعجميًّا بطريق الأولى، بل الهدى والشفاء إذا فهم معناه أتم وأكمل بلا ريب[2]، فإنْ حصل بمجرد اللفظ شفاء؛ فهو شفاء يغادر سقمًا، وسرعان ما تنتكس الحالة الإيمانية للقلب وقد يرجع بوضع أشد سُوءً من السابق.

(١) العودة إلى القرآن، ص(١٧).

(٢) بيان تأسيس الجهمية، (٨/ ٣٣٤).



والله ﷻ خلق خلقه ومنَّ عليهم بشـــفاءين، شفاء للأبدان وآخر للقلوب، كما قال ابن مســـعود رضي الله عنه: «عَلَيْكُمْ بِالشِّفَاءَيْنِ: الْقُرْآنِ وَالْعَسَلِ»[1]، والشَّيطان تســـلَّط بسُمْيَن أحدهما للأبدان والآخر للقلوب، وهما الأمراض والذنوب.

وهذا يســـتدعي أن تتعاون مع القرآن فـــي تحقيق الهداية وتماثل الشـــفاء، فلا تجعل بينك وبينه حجابًـــا من المعاصي والأكنة، وحجابًا من الإعراض والغفلـــة، بل أقبل على القرآن وأطعه في أوامره ونواهيـــه، وتأدَّب بآدابه، وتَعَـــرَّف على مَن يعرفك عليه، وصدِّق بأخباره، واعرضْ حالك وما تشـــكوه في إيمانك على القرآن؛ فســـتجد العلاج، ثم خُـــذْه وأنت مطمئنٌّ موقنٌ بأنه شفاؤك الذي لا يغادر سقمًا من أسقامك إلا أزاله.



القرآنُ يَهُزُّ:

مَن يقرأ النصوص التي تكلَّمـــت عن القرآن لا بُدَّ أن يجد أنها أجمعت على ذكر قضية مشـــتركة بينها، وسأذكر عددًا من النصوص ثم ننظر في الأمر المشترك:

ـ فقوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١] فلم يكتفِ بخشوع الجبال

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(٥٧).



مع أنه المقصود حتى أضاف إليه التصدُّع، فلماذا هذه الإضافة؟ وماذا تفيد؟ وما هذا الشَّيءُ الذي صدَّع الجبال مع قوتها ونحن نرى الجهد الذي يبذل لتكسير جزء يسير من الجبل؟ أليس هذا دليلاً على أن الجبل جاءه ما هو أقوى وأشد صلابةً منه؟!

وذكر الجبل ـ والله أعلم ـ لبيـان أن غيره من المخلوقات أولى بالتصدُّع منه، فما قوة الحجارة والتراب والأشجار والمياه والنجوم والكواكـب والحيوانات أمام قوة الجبـل، فإذا كان الجبل الأصم يتصدَّع؛ فكيف يكون حال غيره من المخلوقات؟!

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١]، والمعنى: لو كان في الكُتُب الماضية كتابٌ تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشـق أو تكلم به الموتى في قبورها؛ لكان هـذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك؛ لما فيه مـن الإعجاز[1]، فلاحظ الكلمات (سـيِّرت) (قطِّعت) (كلِّم)؛ فلماذا هذه الأمور الكبيرة دون غيرها؟



ـ قوله تعالـى عن الجـن: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، فتأمل كلمة (وَلَّوا) فماذا فعل

(١) تفسير ابن كثير، (٤/ ٤٦٠).



القرآن بهـــم؟ وخُلو الكلمة من حــرف العطف يدلُّ على أن الجن بعدما انقضت قــراءة القرآن عليهم من النبي ﷺ ذهبوا مباشرةً إلى إنذار قومهم ولم يمهلوا أنفسهم لحظة للتفكير أو المشاورة، ما سر هذه العجلة الغريبة لكلام غير معهود لهم؟ ما الذي غيَّر منهج هؤلاء الجن الذي اطلعوا على ما لم يطلع عليه البشر، ولهم من القوة ما ليس للبشر في بعض الجوانب؟ لا بُدَّ أن يكون شــيئًا أقوى مــن الجن وطيرانهــا وغوصها وبنائها.



ـ وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فذكر الله سبحانه وتعالى القشعريرة دون غيره من تأثر العبد بالقرآن؛ فَلِمَ ذلك؟!

الخيطُ النَّاظمُ بين هذه الأمثلة هو أن القرآن لا بُدَّ أن يُسبِّب هزةً سواءً في الجمادات أو الأنفس والجن والإنس، فالقرآن له سلطان وهيبة وقوة على المخاطبين، يهزهم أول ما يصل إليهم، يثير مكامنهم، يطرد ما لا يناسبه، كالنور إذا دخل مكانًا مظلمًا يغيِّر معامله ويبــدِّل حاله، فالقرآنُ له قهر لكلِّ مَن يســتلم له، يقهره ويعطيه الذل والخضوع للمتكلم بهذا الكلام، وهذا أصل العبودية.



أليس عجيبًــا أن القــرآن أذلَّ الكِبرَ الموجــود في قلوب المخالفين؟! ألمْ تمتلــئ قلوبهم من الكِبر والاســتعلاء؟ فإذا بذلك كلِّه ينهار أمام القرآن، مع أنهم لو جلســوا سنين طويلة لإزالتها لم تتغيَّر طبائعهم.

حتى الملائكــة الكِرام البــررة، أصحاب الخلقــة العظيمة، والمنظر الحســن كما قــال خالقهم عن جبريــل عليه السلام ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٦]، فمنظره مهيب جميل مستوي الخَلق والخُلق، كلهم يستمعون القرآن، ويتلونه على أحد الأقوال في قوله تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ٣][(١)]، ومِن شــدة تعلقهم بالقرآن أنهم يبحثون عن أصحابــه الذين يتلونه فيقتربــون منهم حتى يضعون أفواههم على أفواه قارئ القرآن، كما في الحديث: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَلْيَسْتَكْ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَرَأَ فِي صَلَاةٍ وَضَعَ مَلَكٌ فَاهُ عَلَى فِيهِ، فَلَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ شَيْءٌ إِلَّا دَخَلَ فَمَ الْمَلَكِ»[(٢)].



فالقرآن لا بُدَّ أن يورث قارئه وسامعه هذه الهزة التي تزيل الحجاب بينــك وبينه، والتي تُظهِر للعبــد حقيقة ضعفه وفقره

(١) تفسير القرطبي، (١٥/ ٦٢).

(٢) أخرجه البيهقي في (الشــعب)، (٢١١٧)، وصحَّحه الألباني في (صحيح الجامع)، (٧٢٠).



وعجزه أمام هذه الهيبة الربانية القوية، فيستسلم له وينقاد معه، ولا يستطيع أن يقاومه، وليســت تلك الهزة اهتزاز خوف فقط لكنه اهتزاز مهابة، فهذا النجاشي رضي الله عنه حينما سمع بداية سورة مريم بكى، فأين الذي يبكي في ســورة مريــم؟ هل هناك ذكرٌ للعــذاب؟ أو وعيــد وتهديــد؟ كلا، إنَّ الــذي أفــاض عين النجاشي رحمه الله ذكر الرحمة الربانية التي وسعت زكريا ومريم ـ عليهما السَّلام، وما تشتمل قصتهما عليه من رأفة وفرج وفرح، ألســنا نتفاعل مع بعض القصص التي نســمعها من قصة برٍّ، وقصة فرج بعد يأس، حتى أن أعيننا تدمع أحيانًا مع أن القصة من التاريخ الماضي؛ فكيف إذا كان المتكلم بذلك هو الرءوف الرحيم، ومَن أصدق من الله قيلاً.



إنَّ القرآن هزَّ النجاشي رحمه الله فأثار مكامن الرحمة في قلبه، قد يكون عند النجاشي رحمه الله تلك اللحظة همومٌ وأمورٌ شغلت باله، فجاءته الآيات تعطيه حلاً لها من خلال ربطه بالله الرحيم الذي فرَّج عن زكريــا ومريم ـ عليهما السَّــلام.. طردت تلك الآيات الشــكوك التي ألقاها الشــيطان على قلبــه، أثبتت تلك الآيات في قلب النجاشي رحمه الله رجاءه لله وخوفه منه ومحبته له، رفعت يقنه بــأن الله سبحانه وتعالى كبير الــذات والقــدر والأفعال، وأن ما دونه ليس له شيءٌ ولا يقدر على شــيء، فإلهه أولى بتعلقه



واهتمامه والارتباط به، كان هذا عند النجاشي رَحِمَهُ اللَّهُ، ثم جاءت الآيـات تقـرِّر ذلـك لـه، وإنمـا أردتُ أن أضـرب مثـالاً بالنجاشي رَحِمَهُ اللَّهُ الذي ازداد إيمانًا بالله حين سماع الآيات وعرف أنها والذي أُنزل على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يخرجان من مشكاة واحدة.

فإنْ قُلـتَ: كيف للقـرآن أن يهزَّ مشـاعري؟! وهل هناك أنموذج أحتذي حذوه؟! فاسمع ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يذكر لك كيف تقرأ القرآن تحت فصل عَنْوَن له بقوله:

«**فصل: الْقُرْآنُ كَلَامُ الله**، وَقد تجلَّى اللهُ فِيهِ لِعِبَادِهِ وَصِفَاته: فَتَارَة يتجلـى فِي جِلْبَـاب الهيبة وَالْعَظَمَـة والجلال فتخضع الْأَعْنَاق وتنكسر النُّفُوس وتخشع الْأَصْوَات ويذوبُ الْكِبرُ كَمَا يذوبُ الْملحُ فِـي المَاء، وَتـارَة يتجلَّى فِي صِفَـات الْجمال والكمال وَهُوَ كَمَال الْأَسْمَاء وجمال الصِّفَات وجمال الْأَفْعَال الدَّال على كَمَال الذَّات، فيستنفد حبه من قلب العَبْد قُوَّة الْحبِّ كلهَا بحبِّ مَا عرفه من صِفَات جمالـه ونعوت كَمَاله، فَيُصْبح فؤاد عَبده فَارغًا إِلَّا من محبته، فَإِذا أَرَادَ مِنْهُ الغيران يعلق تِلْكَ الْمحبَّة بِهِ أَبى قلبه وأحشاؤه ذَلِك كل الإباء، كَمَا قيل:



يُرَادُ مِـن الْقَلْبِ نِسْـيَانُكُمْ ... وَتَأْبَـى الطِّبَاعُ عَلَـى النَّاقِلِ

فَتبقى الْمحبَّة لَهُ طبعًا لَا تكلفًا.



وَإِذا تجلَّى بِصِفَات الرَّحْمَة وَالْبر واللطف وَالْإِحْسَان انبعثتْ قُوَّةُ الرَّجَاءِ مِن العَبْد وانبسـط أمله وَقَوي طمعه وَسَار إِلَى ربِّه وحادى الرَّجَاء يَحْدُو ركاب سيره، وَكلما قوي الرَّجَاء جد فِي الْعَمَل، كَمَا أَن الباذر كلما قوي طمعـه فِي الْمغل غلق أرضه بالبذر وَإِذا ضعف رجاؤه قصر فِي الْبذر.

وَإِذا تجلَّى بِصِفَات الْعدْل والانتقام وَالْغَضَب والسخط والعقوبة انقمعـت النَّفسُ الأمَّـارةُ وَبَطلَـتْ أَو ضعفتْ قواها من الشَّـهْوَة وَالْغَضَب وَاللَّهْو واللعب والحرص على الْمُحرمَات وانقبضتْ أَعِنَّة رعوناتها، فأحضرت المطية حظها من الْخَوْف والخشية والحذر.



وَإِذا تجلَّى بِصِفَات الْأَمر وَالنَّهْي والعهد وَالْوَصِيَّة وإرسال الرُّسُل وإنزال الْكتب شرع الشَّـرَائِع انبعثتْ مِنْهَا قُوَّة الِامْتِثَال والتنفيذ لأوامره والتبليغ لَهَا والتواصـي بهَا وَذكرهَا وتذكرها والتصديق بالْخبر والامتثال للطلب والاجتناب للنَّهْي.

وَإِذا تجلَّى بِصفة السَّـمع وَالْبَصَر وَالْعلم انْبَعَثْ من العَبْد قُوَّةُ الْحيَاء، فيسـتحي ربه أَن يرَاهُ على مَا يكره أَو يسـمع مِنْهُ مَا يكـره أَو يخفي فِي سَـرِيرَته مَا يمقته عَلَيْـهِ، فَتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشَّرْع غير مُهْملَة وَلَا مُرْسلَة تَحت حكم الطبيعة والهوى.



وَإِذا تجلَّى بِصِفَات الْكِفَايَة والحسب وَالْقِيَام بمصالح الْعباد وسوق أَرْزَاقهم إِلَيْهِم وَدفع المصائب عَنْهُم وَنَصره لأوليائه وحمايته لَهُم ومعيته الْخَاصَّة لَهُم انبعثتْ من العَبْد قُوَّةُ التَّوَكُّل عَلَيْهِ والتفويض إِلَيْهِ وَالرِّضَا بِهِ وَمَا فِي كلِّ مَا يجريه على عَبده ويقيمه مِمَّا يرضى بِهِ هُوَ سُبْحَانَهُ، والتوكل معنى يلتئم من عِلم العَبْد بكفاية الله وَحُسن اخْتِيَاره لعَبْدِهِ وثقته بِهِ وَرِضَاهُ بِمَا يَفْعَله بِهِ ويختاره لَهُ.

وَإِذا تجلَّى بِصِفَات الْعِزِّ والكبرياء أَعْطَتْ نَفسه المطمئنة مَا وصلت إِلَيْهِ من الذل لعظمته والانكسار لعزته والخضوع لكبريائه وخشوع الْقلب والجوارح لَهُ، فتعلوه السكينَة وَالْوَقار فِي قلبه وَلسَانه وجوارحه وسمته وَيذْهب طيشه وقوته وحدته.



وجماع ذَلِك أَنه سُبْحَانَهُ يتعرَّف إِلَى العَبْد بِصِفَات إلهيته تارة وبصفات ربوبيته تَارَة، فَيُوجب لَهُ شُهُود صِفَات الإلهية الْمحبَّة الْخَاصَّة والشوق إِلَى لِقَائِه والأنس والفرح بِهِ وَالسُّرُور بخدمته والمنافسة فِي قُربه والتودُّد إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ واللهج بِذكرِهِ والفرار من الْخلق إِلَيْهِ، وَيصير هُوَ وَحده همه دون مَا سواهُ، وَيُوجب لَهُ شُهُود صِفَات الربوبية التَّوَكُّل عَلَيْهِ والافتقار إِلَيْهِ والاستعانة بِهِ والذُّل والخضوع والانكسار لَهُ، وَكَمَال ذَلِك أَن يشْهد ربوبيته فِي إلهيته وإلهيته فِي ربوبيته وحمده فِي ملكه



وعزه فِي عَفوه وحكمته فِـي قَضَائِهِ وَقـدره وَنعمته فِي بلائه وعطاءه فِي مَنعه وبره ولطفه وإحسـانه وَرَحمتـه فِي قيوميته وعذله فِـي انتقامه وجوده وَكَرمه فِي مغفرته وسـتره وتجاوزه وَيشْـهد حكمته وَنعمته فِي أمره وَنَهْيه وعزه فِي رِضَاهُ وغضبه وحلمه فِي إمهاله وَكَرمه فِي إقباله وغناه فِي إعراضه.

وَأَنتَ إِذا تدبَّرتَ الْقُرْآنَ وأجرته من التحريف وَأَن تقضي عَلَيْهِ بآراء الْمُتَكَلِّمين وأفكار المتكلفين أشهدك ملكًا قيومًا فَوق سماواته على عَرْشه يدبر أَمر عباده يَأْمر وَيُنْهِي وَيُرْسل الرُّسُل وَينزل الْكتب ويرضى ويغضب ويثيـب ويعاقـب وَيُعْطِي وَيمْنَـع ويعز ويذل ويخفض وَيرْفَع يرى مِن فَوق سـبع وَيسمع وَيعلم السِّرّ وَالْعَلَانِيَة فعَّال لما يُرِيد مَوْصُوف بِـكُلِّ كَمَال منزه عَن كلِّ عيب، لَا تتحرَّك ذرَّة فَمَا فَوْقهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تسْقط ورقة إِلَّا بِعِلْمِهِ، وَلَا يشفع زهد عِنْده إِلَّا بِإِذْنِهِ، لَيْسَ لِعِبَادِهِ من دونه ولي وَلَا شَفِيعٌ»[1].

بهذه المنهجية لا بُدَّ للقرآن أن يُحدث لك هزةً في القلب؛ فتتأثر المشاعر والفكر والوجدان، ثم يقشعر الجلد والقلب، ثم يلين الجلد والأعضاء والجوارح للانقياد لأوامر القرآن ونواهيه، فما استطاعت عليه فَعَلَتْهُ، وما لا استَغفَرَت ربها منه.

---

(١) الفوائد لابن القيم، (٦٩) وما بعدها.



۞ القرآن عمران البيوت:

بيَّنت السُّنة النبوية شأن البيوت التي يُقرأ فيها القرآنُ، فقد روى مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ»(١)، وفيه أن القرآن حياةٌ للبيوت، والبيت الخالي عن القرآن شبيهٌ بالمقابر لا حياة فيها، والقرآن سمَّاه الله روحًا كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، كما قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «الْبَيْتُ الَّذِي لَا يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ كَمَثَلِ الْبَيْتِ الْخَرِبِ الَّذِي لَا عَامِرَ لَهُ»(٢).



ومقصود القراءة في البيوت هي قراءة القرآن بتأمُّل وتدبُّر وترتيل، وحينما قَصَّرنا في قراءة القرآن تَعَبُّدًا استبدلنا ذلك بالقراءة المسجلة من خلال الوسائل المعاصرة، مع أن قراءة آية واحدة تُقرأ في البيت مع مدارسة أهل البيت لها أفضل بكثيرٍ من ختم القرآن عن طريق التسجيل.

وخروج الشياطين من البيت الذي يُقرأ فيه القرآن علامةٌ على دخول الملائكة إليه، فإنَّ الملائكة على الضد من

---

(١) صحيح مسلم، (٧٨٠).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة، (٣٠٦٤٥)، وسنده صحيح موقوف.



الشياطين، فإذا دخلت الملائكة مكانًا زاد خيره وعمَّ طمأنينته، ومن آثار ذلك هدوء البيت وقلة الغضب وتمام السكن القلبي، وقد جاء عن ابن سـيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: «البيت إذا تُلي فيه كتاب الله اتسـع بأهله، وكثُر خيره، وحضرته الملائكة، وخرجت منه الشـياطين»[١]. وعلى هذا؛ فالنـور يعمُّ البيت الـذي يُقرأ فيه القرآن، حتى يكـون البيت في الأرض كالكوكـب الدُّرِي في السَّـماء، واختلاف أنوار البيوت على قدر قراءتها للقرآن، هذا فعل القرآن في البيوت وفعله في الصَّدر أشد من ذلك، فالصَّدر الذي حوى القرآن لا يقربه شيطان، فإنْ اقترب احترق.



وقد حافظ السَّـلف على ورد ثابت للقرآن في بيوتهم، فقد كانت أُمُّنا عائشـة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تقرأ حزبها في بيتها وهي مضطجعة على فراشـها، ووكيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان لا ينام حتى يقرأ جـزءه من كلِّ ليلة ثلث القرآن، ثم يقوم في آخر الليل، فيقرأ المفصل، ثم يجلس[٢].

ومن أعجب مَن ورد عنهم قراءة القرآن في البيوت ما جاء عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فقد سألوا نافعًا: ما كان يصنع ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في منزله؟ قال: «لا تطيقونه؛ الوضوء لكلِّ صلاة، والمصحف

---

(١) المصدر السابق، (٣٠٦٥٠)، وهو صحيح موقوف.

(٢) سير أعلام النبلاء، (١٤٨/٩).



فيما بينهما»[1]، ولأجل أن تتخيَّل هذا البرنامج؛ فهو أشبه برجل مسجون في بيته ومع مصحفه، فلا يخرج إلا للصلاة أو الجهاد أو الفتيا، فما أعظمه من برنامج يومي!! وما أشـد صبره رضي الله عنه!! إنَّ أحدنا إذا بكَّر للجمعة فقرأ عدة أجزاء ليأتيه شعورٌ أنه قضى ما عليه من حقٍّ قرآني في هـذا اليوم! والمتأمل في حالنا اليوم يجد أن قراءة القرآن في البيوت بـدأت تندثر، واكتفينا ببعض التسجيلات الصوتية للقرآن.

القرآن يصحِّح التصورات:



مدار كيد الشـيطان للإنسـان يكون في محورين: التصور والإرادة، وهما أصل قول القلب وعمله، فقد يفسـد الشيطان تصورات العبد، وقد يفسد إرادته وهَمَّه وعمله.

وعلى هذا؛ فما الذي يصنع تصور الإنسـان المسـلم في زماننا المعاصر؟

بيئتـه وتربيته ودراسـته وحياته وأهلـه ومحيطه وصحبته وما يسـمعه وما يراه.. كلُّ ذلك يصنع تصورات المسـلم في زماننا، أي أن هذه الأمـور وغيرها تصنع تصورك عن العبودية لله والتوكل والإخلاص والتقوى والخشـوع والخشية، بل هذه

(١) أخرجه ابن سعد في (الطبقات)، (٤/ ١٧٠)، ورجاله ثقات.



الأمور تصنع تصورك عن أسماء الله وصفاته وأفعاله، فأيُّ خلل في أحد هذه الأمور سـينتقل الخلل معه إلى التصور وبالتالي إلى الإرادة والفعل، ويا ليت أن ذلك يصاحبه تصحيح واجتهاد في المعرفة الشرعية للتصور الصحيح؟ بل يعيش البعض طوال حياته وهو يزداد من التصورات غير الصحيحة، أرأيتم خطورة الأمر في صناعة التصورات؟!



ولنأخذ مثالاً في أول كلمة فـي القرآن: الحمد، فمَن الذي يصنع تصـور الحمد في تصوراتنـا؟ بيئتنـا وعاداتنا وصحبتنا وحياتنا الوظيفيـة والاجتماعية صنعت تصـورًا لنا عن الحمد والتحميد، والقـرآن يصحِّح التصور تجـاه الحمد، فلا يُحمد ولا يستحق الحمد إلا الله لصيغة الحصر (الحمد لله)، فالله هو المحمود وهو الحميد، وكل من حمدناه وشكرناه فلْنَشكُره لأن الله أمرنا بذلك، فألسنتنا تلهج بالحمد وقلوبنا متعلقة بالله؛ لأنه الخالق للشيء المحمود، وهو الذي شاءه وقدره وأوجده ﷻ، فالعبد يأكل اللقمة فيحمد الله عليها، ويستيقظ من نومه ويحمد الله، ويحمد الله في صلاته وبعد ركوعه وفي الأذكار بعد صلاته، فإذا كان تصوره للحمد شـرعيًّا من خلال القرآن فسيحمد في السَّراء والضَّراء حمدًا يليق بالله، فإذا انصبغ بذلك فسيجعل أكثر دعائه ثناءً على الله، والله أهـل الثناء والمجد، فيا تُرى مثل هذا



العبد كيف سيكون حمده إذا رفع رأســه من الركوع فقال: رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءَ مَا شِئْتَ، مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ؟!

وأيضًا كيف سيكون حمده إذا أصابته ضراء من نقص مال أو نفس أو أذى؟! مثل هذا الحامد الذي صحح القرآن تصوره عن الحمد هل سـيجزع ويســخط؟! لن يكون ذلك؛ لأن آية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحـة: ٢] تدافــع عن صاحبها حينما تغزو الشياطين قلبه.



إنَّ الحامــد الذي صحَّح القرآن تصوره لن يحســد الناس على ما آتاهم الله من فضله؛ لأنه يعلم أن المعطي المســتحق للحمد هــو الله، فلم يــأتِ للنَّــاس الذي جاءهــم من فضل بقدراتهم وإنما بفضل ربهم وحده.. فكيف إذا تتبع قارئ القرآن الحمد في القرآن؛ فكم من التصور الصَّحيح ســيحدث لديه، وأيضًا الحامد علــى المتربي على التصور الصحيح للحمد من خلال القرآن يشكر الناس شكرًا يليق بما بذلوه من عمل إلا أن قلبه متعلقٌ بالله ملتفتٌ إليه.

وانظر كذلك لتصحيح القرآن لمفهوم السَّعادة والطمأنينة؛ فمَــن تأمل قولــه تعالــى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]؛ فليست الطمأنينة والسَّــعادة متعلقة بالظروف إنما



متعلقة بمعرفة العبد لربه وتعلقه به ومحبته له وإقباله عليه، فإنْ كانت الظروف الحياتية متهيأة وهي السَّراء؛ فإنه سيستغل تلك الظروف لزيـــادة الإقبال علـــى الله، وإنْ لم تكـــن متهيأة؛ فإنه سيســـتغل شـــدة ظروفه وهي الضَّراء لتوصله إلى الله، فللسَّراء عبودية وللضراء عبودية، والمؤمـــن لا يبالي على أيهما يركب ليصل إلى ربه.

وقُلْ مثل هذا في تصحيح التصور للتوكل والتقوى والزهد والورع والعلم، وأصل ذلك وأساسه وهو تصحيح التصور عن الإيمان بالله.. ألا يحتاج ذلك إلى مدارسة للقرآن وتأنٍ وتأمل في بعض آيات منه على مدى أشهر؟! ولهذا كان الصَّحابة ﵃ يتدارسون عشر آيات نزلت ويمكثون فيها الشَّهر والشَّهرين.



فاتضح أن تصحيح التصور يحتاج إلى مهتمين:

الأولى: هدم التصورات السَّابقة التي بناها العبد من خلال بيئته ومحيطه وغير ذلك من أدوات بناء التصور.

والأخرى: بناء تصورات شـــرعية صحيحة من خلال فهم معاني آيات القرآن.. اللهم أعنا على فهم كلامك والعمل.

هذا كلُّه في صدِّ مكر الشَّيطان فيما يخص التصور، ويبقى أمام المؤمن صدِّ المكـــر الثاني فيما يخـــص الإرادة والعمل،



وأســـاس ذلك المجاهدة والله ﷻ يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ولكي يسهل الأمر علينا أسأل هذا السُّـؤال[1]: أيُّهما أشد انحرافًا: تصورات الصَّحابة رضي الله عنهم قبل إسلامهم أم تصوراتنا نحن الآن؟!

لا شكَّ أن تصوراتهم التي بنتها لهم الجاهلية المظلمة أشد انحرافًا من تصوراتنا التي دخلها خللٌ، ومع هذا غيَّرهم القرآن في فترة قليلة، والسِّـرُّ في ذلك عظمة وقوة القرآن، فإذا أقبلت على القرآن أعطاك القرآن من كنوزه، فــإذا كان القرآن صحَّح تصورات الصَّحابة رضي الله عنهم التـــي بنتها الجاهلية بـــكلِّ تفاصيلها؛ فكيف بتصورات فيها بعض الخلل؟!



إنَّ علينا جميعًا أن نحسَّ بخطورةِ بُعد تصوراتنا عن القرآن؛ إذ قد يفعل العبد أفعالاً يظنها من الإيمان وهي تناقضه، ويتعبد لله بما لا يحبه الله، وبما ليس من شـــرعه ودينه، وهذا ما عليه حال بعض أهل الكتاب من قبلنا، كما قال الله عنهم: ﴿ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد: ٢٧]، وحتى ندرك خطورة الأمر انظر لتصوراتنا عن الحبِّ والمحبة، وكيف أن هذا المعنى ـ الشريف العزيز الذي يربط المؤمن بربه

---

(١) غربة القرآن، ص(٢٤).



برباط قوي وثيق ـ انحرف عن مساره وعبث فيه الشيطان أيما عبث؟! مع أنه من أجلِّ نعم الله أن الله رزق العبد حبًّا في قلبه، وقد جعل هذا الحب القلبي أمانة عرضت على السموات والأرض فأبين أن يحملنها، فماذا فعلنا بهذه الأمانة؟!

تصوُّرُ القرآنِ عن الحبِّ عجيبٌ جدًّا، فمَن تتبع آيات الحبِّ وأسماء الله وصفاته عرف أن حبَّ الله هو أساس هذا الوجود، فلا يُحب إلا الله وما والاه وما يُحبه الله، وإذا كانت أعمال القلوب كلها تدفع العبد للعبادة الله؛ فإنَّ الحبَّ يجذب القلب جذبًا إلى الله، ولهذا قال علماء السلوك: على قدر محبة الله تكون درجة الأعمال القلبية الأخرى، فمتى ما قويت المحبة تحرك الخوف والرجاء والتوكل واليقين وغيرها، فنلاحظ أن قوة هذه الأعمال على قدر قوة المحبة، ولكي نعلم فساد التصور في المحبة اليوم فانظر إلى محبوباتنا وتنوعها وسُبل بناء الحب عندنا، وعلى أيِّ أساس نُحب؟! هل تجد فيها أن سبب بناء حبنا هو: أن هذا مراد الله الشرعي ومحبوبه؟! أليس من فساد تصور الحب أننا بدأنا نُحب ما يبغضه الله؟! هل مثل هذا يدلُّ على بنائنا الحب من خلال آيات المحبة في القرآن؟! وحينما أفسد الشيطان تصور الحب قال الله للناس: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].





ومن أكبر القضايا في بناء التصور حسب آيات القرآن تصورنا عن إرادة الإنسان وقوتها، وتحكم العبد فيها، وجعلها تحت شرع الله وسلطانه، وتعلق ذلك بعمل الجوارح والهمِّ القلبي، وكيف تتصل هذه الإرادة بالله، وعلاقة الإرادة بأركان الإسلام الخمسة، وكيف تُبنَى؟ ومعرفة جواذب تلك الإرادة وموانعها، وتجريد الإرادة عن العوائد والعوائق، فانظر لقول الله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦]، فبيَّنت الآيات أن مَن أراد الدُّنيا؛ فليس له في الآخرة من نصيب، فكيف بمَن أراد الدُّنيا بعمل الآخرة كما هو واقع بعض المسلمين اليوم، وقد بلغ مكر الشيطان بالنَّاس في زماننا بأن جعل المحرك لكثير من الأذكار والصدقات وصلة الأرحام هو طلب حظوظ دنيوية محضة، وهذا من طلب الدُّنيا بعمل الآخرة، وهذا فساد في التصور للإرادة، وانظر كيف عرَّض نفسه للوعيد الشديد العظيم بسبب فساد التصور.



ومن العجب أن القرآن يصحِّح التصور عن البر ويبطل عادة جاهلية غريبة، وقد لا تكون منتشرة بين الناس تلك الفترة



إلا أنها موجــودة ولا بُدَّ، وهي أن الحــاج إذا رجع من الحج لا يدخل البيت من بابه وإنما من ظهره، ولا شكَّ أنها عادة لها وجود في فترة معينة، لكن هل يعقل أن القرآن يتكلَّم عن عادة ليست مشهورة بين العرب وينزل بشأنها قرآنًا؟! حيث قال الله: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٩].



فيأتي القرآن ويصحِّح تصــور الذهن عن البر، ويربطه البر بالتقوى، فيتصحح التصور عند قارئ القرآن بأن العادات ليس لها علاقــة بالبر إنما البــر هو تقوى الله ومراقبته واســتحضار اطلاعه وتغير الســلوك تبعًا لذلك، وليس عادة يقوم بها البدن، وعلى هذا؛ فكم من عادةٍ فــي مجتمعه تربط بالإيمان والتقوى تســقط في تلك اللحظة؟! والآية تلمح إلى أن النفس قد تعبِّر عما فــي داخلها من تأنيــب ضميــر يريد الوصــول للتقوى والدرجات العالية من الإيمان، يعبِّر عن ذلك بمظهر أو عادة أو طريقة معينــة يخترعها البعــض أو هي من إيحاء الشــياطين، فصحَّح القــرآن التصور عن التقوى والإيمــان بأنه ما وقر في القلب وظهر على الجوارح مما شرعه الإسلام دون غيره، فإذا تدارســنا حول هذه الآية وطبَّقناها على واقعنا، فكم من عادة



عند البعض هــرب فيها من الاعتراف بنقص تقــواه إلى ادِّعاء الكمال عن طريق مظهر خارجي يشبع به تأنيب ضميره، ولهذا قد ينشغل البعض بالظاهر ويترك الباطن.

وعلى هذا ينبغي أن تؤخذ قضايا الزمن المعاصر من الحرية واللذة وغيرها مــن خلال نصوص الوحي وآيــات القرآن بعد فهمها وإدراك معناها والتدارس حولها، ولا تنسَ وأنت تصحِّح التصور في قضية معينة أن ذلك التصور الصحيح لن تجده في تلك الآية فقط بل ستجد القرآن ناطقًا به في كلٍّ آياته وقصصه، وهذا تشــابه القرآن المقصود في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، فربط البر بالتقوى وإنْ كان عمدته تلك الآية إلا أن القرآن كلَّه شاهدٌ عليه.



ومع هــذا الوضــوح إلا أنَ الشــيطان يســعى لإفســاد التصورات، فانظر إلى إفساده لأوضح قضية تكلَّم عنها القرآن وهي الإيمان حتــى اختلفت الأهواء فيه!! وكذلك أســماء الله وصفاته حتى تفرق الناس فيه، وتوحيــد الله الذي أُنزل القرآن لأجله، وأعمــال القلوب حتى أنكرها البعــض، وهذا من كيد عــدو الله ومكــره، ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [النــور: ٤٦].. فاترك الآن القرآن يجدِّد تصوراتك واســتغفر الله عما مضى، والله هو الغفور الرحيم، فكم نســبة ما سيصحِّحه



القرآن لنا أمام ما بُنِيَ لنا من تصورات بســبب البيئة والمحيط وتربيتنــا وغيرهــا، أقول ذلك لأبيِّــن أن الأمر كبيــر إلا على الخاشعين.

ولنعلــم أن تصحيح التصــور هو الخطــوة الأولى وتبقى الإرادة والعزيمــة بعــد ذلك، ولا تــدع الشــيطان يصنع لك تصوراتك، أو يسمح بتصحيح التصور ويصدك عن العمل، فكم نوهم أنفسنا أننا مصيبون في أعمال القلوب مثلاً ومحققون لها، ومكملون للإيمان وعلى طريق العلم سائرون، فإذا جاء صوتٌ يصحِّح لنا نادتنا أنفســنا أننا كذلك وأننا صالحون مصلحون، أليس هذا يشبه قول الله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١١]؟







القسم الرابع
القـرآن وحملتـه

مَنْ هُم أهل القرآن وحملته؟

من الأحاديث التي يطرب لها قلب المؤمن قوله ﷺ: «**إِنَّ لله أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «**هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ**»[1]، فمَن هُمْ أهل الله وخاصَّتُهُ؟ قوله: (**أَهْلِينَ**) أي: أهل، والأهل هُم الأولياء والأحباب، فأهلُ القرآن هُم المُختَصُّون به[2].



يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض المناقشة بين أفضلية الترتيل مع قلة القراءة أم السرعة مع مثرة القراءة، قال: «ولهذا كان أهل القرآن هُم العالمون به، والعاملون بما فيه، وإنْ لم يحفظوه عن ظهر قلب، وأما مَن حفظه ولم يفهمه ولم يعمل بما فيه، فليس من أهله وإنْ أقام حروفه إقامة السَّهم»[3].

---

(١) أخرجه أحمد، (١٢٣٠٤)، وابن ماجة في سننه، (٢١٥)، وصحَّحه الألباني في (صحيح ابن ماجة)، (١٧٩).

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير، (١/ ٣٣٦).

(٣) زاد المعاد، (١/ ٣٢٧).



ويوضِّح ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنى حملة القرآن فيقول: «هُم العالمون بأحكامه وحلاله وحرامه والعاملون به»[1].

هكذا كان الأمر في العهود الأولى حتى تغيَّر بعد ذلك إلى أن أصبح حامل القرآن لا يعلم معنى ما قرأ، وإذا قرأ قصَّر في العمل بما علم، ولو أن البعض انشغل بالحفظ استدراكًا لزمن الحفظ في الصغر، ثم انشغل بشكل أكبر على فهم معانيه، وجاهد نفسه على العمل به لكان ذلك مقبولاً، ومما تراعى فيه المصالح والمنافع؛ لكننا نرى أنفسنا ـ غفر الله لنا ـ أننا قد ننشغل بالحفظ، فإذا حفظنا انشغلنا بالمراجعة والضبط، ثم تمر السنوات ولم نتعلَّم معاني كتاب الله، وما دام أن جزء من معاني القرآن مفقودةٌ؛ فلا بُدَّ أن يتخلف العمل بما في القرآن.



ويبيِّن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حقيقة تلاوة القرآن، ومن خلالها يصل لمعنى أهل الله، فيقول: «فحقيقةُ التِّلَاوَة فِي هَذِهِ الْمَوَاضِع هِيَ التِّلَاوَة الْمُطلقَة التَّامَّة وَهِي تِلَاوَة اللَّفْظ وَالْمعنَى، فتلاوة اللَّفْظ جُزْء مُسَمَّى التِّلَاوَة الْمُطلقَة، وَحَقِيقَة اللَّفْظ إِنَّمَا هِيَ الِاتِّبَاع... وَهَذِهِ التِّلَاوَة وَسِيلَة وَطَرِيقَة، وَالْمَقْصُود التِّلَاوَة الْحَقِيقِيَّة، وَهِي تِلَاوَة الْمَعْنى واتباعه تَصْدِيقًا بِخَبَرِهِ وائتمارًا

(١) التذكار في فضل الأذكار، ص(١٩٦).



بأَمْره وانتهـــاءً بنهيه حَيْثُ مَا قادك انقدت مَعَـــه، فتلاوة الْقُرْآن تتَنَاوَل تِلَاوَة لَفظــه وَمَعْنَاهُ، وتلاوة الْمَعْنى أشــرف من مُجَرّد تِلَاوَة اللَّفْظ، وَأَهْلهَا هُم أهل الْقُرْآن الَّذين لَهُم الثَّنَاء فِي الدُّنْيَا والآخرة؛ فَإِنَّهُم أهل تِلَاوَة ومتابعة حَقًّا»[1].

ومما يســاعد في فهم معنى أهل القرآن قــول النبي ﷺ: «**أَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ**»[2]، فإنَّ الوتر غير واجب وجوبًا شرعيًّا، ومع هذا أمر به أهل القرآن، مما يدلُّ على أن أهل القرآن أهلُ عملٍ، وتحفيزهم بندائهم بأهل القرآن هو تحريك للهمم، كأنه قال: إنْ كنتم أهل القرآن فلا تتركوا الوتر.



فالضابط في أهلية القرآن هو العمل، ومع هذا لن يستطيع أحدٌ أن يحصي كلَّ العمل بالقرآن كلِّه، كما قال الله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، فلو أحصينا القــرآن كل الإحصاء لراقبنــا ألفاظنا ونظراتنــا وخطراتنا وخطواتنــا وكل صغيرة وكبيرة من أمرنا، ولم تتســلل الغفلة إلينا، وأصبحنا نذكر الله فلا ننسى، ونشــكر الله فلا نكفر، وهذا ما لا طاقة لنا به مع وجود الأعداء من النفس والهوى والشيطان، فإذا كان كذلك

(١) مفتاح دار السعادة، (١/ ٤٢).

(٢) أخرجه الترمذي، (٤٣٥)، وقال: «حديث حسن».



فالمقصود بالعمل بالقرآن هو الاجتهاد في تطبيق أوامره، والاستغفار عما نعجز عنه، وعلى هذا يفهم قول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِهَذَا الْقُرْآنِ مَنِ اتَّبَعَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَقْرَؤُهُ»[1]، فجعل أولى الناس بالقرآن مَن يعمل به وإنْ كان مُقِلاً من القراءة، ليس كحال كثير من المسلمين في قراءتهم للقرآن.

أصحاب القرآن:



مصطلح آخر ورد في السُّنة النبوية يفيدنا في علاقتنا بالقرآن، وهو مصطلح صحبة القرآن، كما ورد في قول النبي ﷺ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ**»[2]، فهناك ـ إذن ـ قارئ للقرآن، وهناك صاحب له، وكلمة صاحب اسم فاعل تدلُّ على المبالغة في قراءة القرآن، فالصُّحبة لا تكون إلا بعد طول عِشرة، ومما دلَّ عليه الحديث أن صحبة القرآن يمتد أثرها إلى الآخرة، كما أن من دلائل الحديث أن صحبة القرآن تنفع في أشد الأوقات حرجًا وهو الشفاعة يوم القيامة.

---

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام، ص(١٣٤).

(٢) المصدر السابق، ص(١٣٥).

إنَّ ما يجده المؤمن من علاقة محبة بينه وبين بعض سور القرآن أو آياته، هي رسالة من ربه إلى زيادة العلاقة مع السُّور والآيات الأخرى، ليذوق الأنس كما ذاقه مع محبوبته من السُّور.

وأساس صحبة القرآن هو خشية الله، فصاحب القرآن هو أخشاهم لله، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قِيلَ لَهُ: أَيُّ النَّاسِ أَحْسَنُ قِرَاءَةً؟ قَالَ: «الَّذِي إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَتَهُ رَأَيْتَ أَنَّهُ يَخْشَى اللهَ عز وجل»[1]، وهذا دليلٌ على أن القرآن وصل تأثيره إلى جوف القارئ، فظهر خشوع باطنه على صوت ظاهره، والجوارح هي أوعية لما وَقَرَ في القلب، كما قال الله سبحانه وتعالى عن مشية المؤمنين عباد الرحمن: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٤]، فسكينة قلوبهم ظهرت على خطوات أرجلهم من غير تَكَلُّفٍ ولا تَصَنُّع.

ولعل ضابط صحبة القرآن هو تغيُّر السُّلوك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ولهذا قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «فَلا يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَحْتَدَّ مَعَ مَنْ يَحْتَدُّ، وَلا يَجْهَلُ مَعَ مَنْ يَجْهَلُ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ فِي

(١) مختصر قيام الليل، (١٥٣)، وحسَّنه الحافظ ابن حجر في (نتائج الأفكار).



جَوْفِهِ»[١]، فانظرْ كيف جعل صاحب القــرآن وحامله لا بُدَّ أن يُغيِّر سلوكه وغضبه، فلا يغضبه ما يُغضب الناس.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «فلا ينبغي لحامل القرآن أن يلعــبَ مع مَن يلعــبُ، ولا يرفثُ مــع مَن يرفثُ، ولا يتبطَّلُ مع مَن يتبطَّلُ، ولا يجهلُ مع مَن يجهلُ»[٢].

الشَّيطان يحرص على عدم تكرار الخطأ:



ليس الشَّــيطان بمعزل عنَّــا، كما تواتر ذكــره في الكتاب والسُّنة، ولن ينسى الشَّيطان وحزبه جيل الصحابة الكِرام رضي الله عنهم، وكيف آمنوا بالله، وحقَّقــوا المراتب العليا فــي الإيمان، ولن ينســى هزائمه المتتابعة علــى أيديهم، فهزمــوا خيله ورجله، وافشلوا مشاريعه، ودحروه حتى أصبح أغيظ ما يكون وأحقره، والشَّيطان يعلم ســر أولئك القوم وهو أنهم فهموا كلام ربهم وعملوا بما فيه، وليس لهم سر آخر، فلم يكونوا أضخم أبدانًا ولا أقوى سلاحًا من غيرهم، ولهذا فالشيطان يعلم أن المؤمنين متى ما أقبلوا على كلام ربهم وفهموه وجاهدوا أنفســهم على العمل بما فيه؛ فإنَّ النتيجة أن القرآن سيعمل أثره فيهم كما أثر

---

(١) أخلاق حملة القرآن للآجري، ص(١٦).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(١١١).



فيمن قبلهم، ولهذا فهو يصد الناس عن فهم القرآن بكلِّ وسيلة، وإذا فهموه لكونهم عربًا؛ فإنه يعمل على صدهم عن العمل به، وله بكلِّ حيلـة خطوات.. فيبقى العبد المؤمـن يتلو كلام ربه ويكرِّره ولا يفهم معناه، ولا يريد أن يفهم أيضًا، فليس الشـأن في غياب معنى حرف من القرآن؛ فهذا يحدث كما حدث لأبي بكر رضي الله عنه في حرف (أبا)، إنمـا الأمر أن سـورة كاملة يقرأها المؤمن لا يلقي لها بالاً، ولا يعي أوامرها ونواهيها، لدرجة أننا نرتكب بعض المنهيات التي نقرأ النهي عنها أثناء قراءتنا للقرآن، ونتجاوز ذلك للآية التي تليها وكأن شيئًا لم يكن.



والشَّيطان يصدُّ الناس عن الفهم؛ إما بتخويفهم من القول على الله بلا علم، مع أن كثيرًا من الآيات واضحة المعاني عند المؤمن ذي اللسـان العربي، فهل تـرى أن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] صعبة المعنى عند الإنسـان العربي، أو لا يحق لك أن تعرف معناها؟ أو أن ما يطرأ عليك من معنها الظاهر هو قولٌ على الله بلا علم؟ ليس الأمر كذلك.

بل معاني القرآن ذات المعنى الظاهـر التي يعرفها العرب من كلامهم لا حرج أن يفهم الإنسـان معناهـا من خلال لغته العربية التي تفضل الله به عليها، وحينما قسَّـم ابن عباس رضي الله عنهما



التفســير جعل منه قســمًا هو: ما تعرفه العرب من كلامها[1]، فليكن فهمك للتفسير من خلال ما تعرفه من كلام العرب.

واللُّغة العربية وإنْ تغيَّرت بعض كلماتها إلا أن جوهرها لم يتغيَّر ولم يتبدَّل، وأغلب كلمات العرب على ما كانت عليه من معاني، بل إنَّ هذا هو ســر إعجاز القرآن، فإعجازه يكمن في كونه سهل الفهم مع تقادم الزمن، حتى تكاد أن تقول: إنَّ بعض آياته أُنزلت في عصرنا، ولو قارنت بين آيات القرآن وبين بعض أبيات أهل الجاهلية التي نزلت معه فــي نفس الفترة لاحتجنا لمختصين لشرح غريبها، مع اختلافهم أيضًا في معاني الألفاظ، وليس القرآن كذلك.



والعجيب حقًّــا أن كلَّ كلام يقرأه الإنســان مطلوبٌ منه فهمُهُ، ويَحِقُّ له أن يفكِّر فيما يحتويه من معاني ويتفاعل معها، إلا إذا قرأ المؤمــن القرآن لا يطرأ عليه ذلــك، أليس هذا من أعجب حيل إبليــس علينا؟! ثــم يُلبِّس ذلك بلباس شــرعي بالخوف من الإقدام على أن يقول في معاني كتاب الله بلا علم، ثم ليت هذا الشعور يحمله على أن يبحث عن المعنى من كلام المفســرين؛ لئلا يقول على الله بلا علم، لكنك تجد الشيطان للمرة الأخرى يثبِّــط القارئ عن طلب المعنــى، فلا هو تركه

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، (٤/ ٢١٦).



يفهمه بحكم ما وهبه الله من العربية، ولا هو تركه يطلب العلم، فهو يقطع ما أمر الله به أن يوصل.

وقد يكون من الوهم أن ينشـــغل المؤمن بالحفظ والقراءة حاليًا ثم يؤجِّل فهمه لمعاني القرآن لمرحلة عمرية آتية، فيتفاجأ أن السَّـــنوات تطوى، والآيـــات تخاطبه بما هو فيـــه، وتوجهه وتهديه، لكنه وضع حجاب العمر بينه وبين فهم القرآن.



ومَن صدِّهِ عن فهم القرآن ما يورثه الشـــيطان من أمراض القلب كالشـــرك والذنوب والخطايا؛ فهي أعظم حجاب يمنع فهم القرآن، وعلاج ذلك بدوام الاســـتغفار ومجاهدة النفس، وتحقيق التوبة والإنابة إلى الله.

فإنْ انتصر المؤمن وفَهِمَ كلام ربه، أجلبَ عليه الشـــيطان حيلـــةَ الصَّد عن العمـــل بالقرآن؛ لكـــون آياته عامـــة لا تفيد الخصوص، أو لوجـــود الاختلاف بين المفســـرين، ولم يكن المفسرون يختلفون لإبطال العمل بالآية، وأكثر اختلافاتهم هي من قبيل اختلاف التنوع، ولا يمكن لنا أن نتتبع حيل الشيطان للصد عن القرآن، لكن بالتأكيد له في كلِّ يوم حيلة؛ لأن القرآن أثقل الأمور على الشـــيطان، فهو كلام الله، وهذا أحد أســـرار كوننا مأمورين بالاستعاذة بالله من الشـــيطان الرجيم عند قراءة



القرآن، ولم نؤمر بالاستعاذة عند الأكل والشرب مثلاً، وذلك لأن الشيطان يحضر عند المؤمن قبل قراءته للقرآن يريد منعه، فإنْ غلبه وإلا حاول أن يفسد عليه قراءته، فإنْ غلبه وإلا صده وأنساه العمل، فإنْ غلبه وإلا أوقعه في نواقض ومحبطات العمل، وهكذا لا يزال الشيطان يوقعه في مكره وحبائله.. فلن يسمح الشيطان ـ هو العاجز ـ لقلب المؤمن بفهم كلام ربه والعمل به؛ لئلا يأتيه عبدٌ جمع بين العلم والعمل، وحقَّق مراتب الدِّين؛ فيكون أثقل عليه من جبال الدُّنيا كلها.



الشيطان يحضر عند قراءة القرآن[1]:

تفرحُ الملائكةُ بالقرآن وتحبُّ سماعه؛ لأنه كلام ربها وهي أعلم بصفاته وأشد تعظيمًا له، فكلُّ ما يتعلَّق بمولاها فهي أكثر به رغبةً، وقد تنزلت الملائكة لقراءة أُسيد بن حضير[2]، ومع الملائكة تتنزل السكينة[3]، كما في حديث البراء رضي الله عنه قال: «قَرَأَ رَجُلٌ الْكَهْفَ، وَفِي الدَّارِ دَابَّةٌ فَجَعَلَتْ تَنْفِرُ، فَنَظَرَ فَإِذَا ضَبَابَةٌ أَوْ

(١) مرجع هذا المبحث فصل عقده ابن القيم رحمه الله في كتابه (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان)، (١/ ٩٢) وما بعدها.

(٢) حديثه في صحيح مسلم، (٧٩٦).

(٣) صحيح مسلم، (٧٩٥).



سَحَابَةٌ قَدْ غَشِيَتْهُ، قَالَ: فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «اقْرَأْ فُلَانُ، فَإِنَّهَا السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ عِنْدَ الْقُرْآنِ، أَوْ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ». فيجتمع عند قراءة القرآن المؤمن والملائكة النورانيون، وفي قلب المؤمن نور الإيمان بكلام ربه، والقرآن نور، والملائكة نورٌ، فاجتمع نورٌ على نور، ولهذا لا يثقل شيءٌ من العبادات على الشَّيطان وجنده كما تثقل عليهم قراءة القرآن، وهذا النور يؤذيهم فيجتمعون لإطفائه، فشُرع لنا الاستعاذة بالله من الشَّيطان الرَّجيم قبل قراءة القرآن، ثم شُرع لنا البسملة، كما قال: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨].



وقد ذكر العلَّامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عددًا من الأوجه في سبب الابتداء بالاستعاذة، وكلها أوجه رائعة إلا أني سأتوقف عند أحدها، فاقرأ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً، فكلما أحس بنبات الخير في القلب سعى في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ منه؛ لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن»(١).

ومضمون ما ذكره أن قارئ القرآن حينما يتلو كلام ربه، فإنَّ القرآن يقع على القلب كما يقع الماء على الأرض، فينبتُ

---

(١) إغاثة اللهفان، (١/ ٩٢).



أنواع النبـات، فكذلك القـرآن يقع على القلـب فيثمر أنواع المعارف، فآية تعرِّفه باسم من أسماء ربه، وآية تعرِّفه بصفة من صفات مـولاه، وآية تُشـهدُه وعود ربه التي تجلب البشـرى، وأخرى ترهبه مواعيد إلهه ذي الانتقـام، وهكذا بقية الآيات؛ فماذا يصنع الشيطان حيال ذلك؟!

لن يقفَ الشَّـيطان مسلسـل الأغلال بل يتسلط على هذه المعارف فيحرقها؛ لأن النَّار تحرق النبات فينقلب رمادًا، ولهذا شرع لنا الاسـتعاذة قبل قراءة القرآن ليبقَ أثره باقيًا في القلب، فيجتهد الشـيطان على إحراق تلك المعارف بعد القراءة ما لم يتعاهدها المؤمن بالعمل والاجتهاد والاسـتغفار، وقد لاحظ بعض العلماء هذا الوجه؛ فجعلوا الاسـتعاذة تشرع بعد قراءة القرآن[1] حفاظًـا على ما أثمره القرآن من معـانٍ قلبية، ولكن السُّـنة قاضية بالاسـتعاذة قبل القراءة تنظيفًا للقلـب وتطهيرًا ليسـتقبل أفضل كلام، فالنور لا ينزل إلا علـى مكان لائق به، ومَن استعاذ قبل قراءة القرآن حُفظ من الشيطان أثناءها وبعدها.

وقراءة القرآن عمل لا يجتمع عليه الملائكة والشـياطين، فإنْ حضرت الشـياطين فإنما تحضر خلسةً ونزغًا، أما حضور الملائكة فحضور تَقَرُّب واقتراب وإنصات.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص، (٣/ ٢٤٨).





وأعجب ما يفعله الشيطان مع قارئ القرآن أنه يشوِّش عليه بعض الآيات، فيختم آية الرحمة بالعذاب، أو يجعل النار جزاء المتقين، والجنة جزاء للكافرين، فينتبه القارئ وقد خلط المعنى، وذلك من عمل الشيطان فيحسن طرده بالاستعاذة بالله منه، وأصل ذلك قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، فإذا كان هذا فعله من الرُّسل؛ فكيف بغيرهم؟[١].

وفعل الشيطان في تشريد الذهن أعجب من تشويش اللسان؛ لأننا نسمع ونحس بألفاظنا ونغفل عن أذهاننا، ومن حضور الشيطان ما يحدث عند تثاؤب قارئ القرآن، ولهذا أُمر بالإمساك عن القراءة حال التثاؤب[٢].



وقد قال الله بعد آية الأمر بالاستعاذة: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾ [النحل: ٩٩ ـ ١٠٠]، وهذه الآية تدلُّ على أن الاستعاذة ليس مجرد لفظ يقال قبل القراءة، إنما لها ارتباط بسلوكك اليومي وإيمانك وتحقيقك لأعمال القلوب،

(١) إغاثة اللهفان، (١/ ٩٣).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(١١٩)، وأخلاق القرآن للآجري، ص(٧٤)، وسنن سعيد بن منصور، ص(٩٩)، وقال المحقق: «سنده صحيح».



فكلما كان الإيمان في حياتك أكمل كان حفظ الله لك أتمَّ، ولهذا ذُكر الإيمان والتوكل في الآية، وعلى هــذا مَن انتقص في توكله وإيمانه؛ فلا بُدَّ أن ينتقص في حفظ الله له من الشيطان.

والقصد بيان أن حضور الشيطان للقرآن الكريم يكون فيه إغفــال المؤمن عن فقه معانيــه وتزهيده فيها، وإشــباع رغبته النفسية بختم السورة أو الجزء.

ومداخل الشــيطان على المؤمن هي الشبهات والشهوات، ولا يغلق مداخلهما مثل القرآن، فالقرآن يثمر اليقين وبه علاج الشبهات، ويثمر الإيمان وبه علاج الشهوات.



القرآن يعيد علاقتنا بالملائكة

لابد أن يكــون هناك توازن بيــن كون الشــيء واجبًا في الإسلام وبين حضوره في الحياة، فالوفاء بالعهد وبر الوالدين من الواجبات، فإذا تأملت حياة الناس وجدت لهذين الواجبين حضورًا كبيرًا، وإذا كان الأمر مستحبًا كان أقل من ذلك، أما إذا كان ركنًا فيجب أن يكون حضوره وأهميته أشد وأعلى، فانظر الآن إلى ركنية الإيمان بالملائكة ووازنه بحضورهم في حياتنا وتصورنا! هل تجد بينهما تناسب؟!

قد نشــعر بأننا معزولون عــن الملائكة، وأنهــم عالم آخر يتعبدون لله بما شــرعه لهــم، إلا اللهم من وكَّلــه الله علينا ممَن



يكتب أعمالنا، هكذا يظن البعض! أو قد يظن البعض بأن علاقتنا بالوالدين ومَن حولنا أكثر من علاقتنا بالملائكة، وأشد فسادًا من هذا التصور من يظن عـدم حاجتنا للملائكة وإمكانية اسـتغنائنا عنهم، وهذا كله مبنيٌ على ضعف تصور حقيقة الإيمان بالملائكة.

لو كان الأمر بهذا التصور أو قريبًا منه لم يكن الإيمان بهم ركنًا من أركان الإيمان، مَن لم يحققه يخرج من دائرة الإيمان! ولِم ذكرهم الله بأكثر من ٨٨ موضعًا صريحًا باسمهم؟ وأحيانًا بأوصافهـم كالصافـات والزاجـرات والتاليـات والذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات والمرسلات والعاصفات والناشـرات والفارقات والملقيـات والنازعات والناشـطات والسابحات والسابقات والمدبرات.



ابتدأت علاقتنـا بالملائكة منذ سـجودهم لأبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث عظموا المخلوق الذي عظَّمـه الله، ورأوا في أبينا عَلَيْهِ السَّلَامُ بديع صنع الله فخروا له سـاجدين، وقد كان أبونا عَلَيْهِ السَّلَامُ جميلًا مهيبًا جسيمًا، طوله ستون ذراعًا في السـماء، وتستمر العلاقة بيننا حين نكون فـي أرحام أمهاتنا فيكتبـون أربع كلمات هي أرزاقنا وآجالنا وشـقاوتنا وسـعادتنا، وهـم الحفظة للمؤمن يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فيمشي المؤمن كهيئة الملِك



أمامه جنود ومن خلفه جنود، لا يسـمحون بتسـلط الشياطين عليه، لو كُشـف لنا البصر لرأينا ما بيننا وبين السـماء ملائكةً تصعد وتنزل تنفذ الأوامـر، ولرأينا ملائكة ملازمة للمؤمن في شـأنه كله، ولرأينا بعضهم يتلمس مجالس الذكر، وأعجب من ملائكـة الأرض ملائكةُ السـماء الذين أقسـم الله بهم فقال: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ فأقسم بوقوفهم واستعدادهم وزجرهم، وكل هـذه الأعداد ما منهـم إلا مقام معلوم، فـإذا حضرت معارك المؤمنيـن حضـروا وأوحى الله لهـم ﴿أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ والمعية هنا تدل على كمال افتقار الملائكة لمعية الله، لئلا يظن المؤمن أنهم فاعلون مـن دون الله فيقع في عبادتهم ورجائهم مـن دون الله، وهم يبغضـون المجرمين والظالمين، ويحبون المؤمنين، ويحبـون التالين للقرآن، ويحبون سـماع القرآن، ويحضرون في صلاة الفجر لسـماع القرآن، وإذا دخل الخطيب يوم الجمعة جلسوا يستمعون الذكر[1]، فهنيئًا للخطباء بهذا الجمع المشـهود، وليجتهـدوا في تجويـد قلوبهم أثناء الخطبة إذ الملائكة ترى النـور في القلوب. ومن الملائكة من يتفاعل مع قراءة القرآن فينزل من السماء إذا سمعها كما حصل

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٣٧.



في قصة أُسيد بن حضير[1]، فعلى معلمي القرآن أن يحتسبوا سماع الملائكة من حولهم ومحبتهم لعملهم.

إن السؤال القائل: ما مدى حضور الملائكة في حياتنا؟ يجب أن يتغير إلى سؤال آخر: كيف لنا أن نتصور الحياة بدون الملائكة؟

إن الزمن الذي تنتشر فيه الشياطين هو الزمن الذي يجب أن ينتشر فيه فقه الإيمان بالملائكة لأنهم أعداء الشياطين، وعلى قدر إيماننا بالملائكة يكون حفظ الله لنا من الشياطين.



همهم الملائكة متعلقة برعاية المؤمنين ونصرهم، وانظر إلى بعض المشاهد التي ذكرها القرآن لنا لنعيد العلاقة مع الملائكة من خلال القرآن، فاسمع قول الله وهو يصف لحظة سكرة الموت، اللحظة التي يصعب وصفها، إذ وصفها مبنيٌّ على الإحساس بها، حيث ينتاب العبد في تلك اللحظة شعوران لا يدري أيهما يعطيه تفكيره، خوف مما أمامه، وحزن على ما خلفه، والقلب يكاد يطيش بينهما، فكيف وهو يطالب أن يتذكر شهادة التوحيد فيقولها مؤقنًا من قلبه! أي قلب هذا؟ فيقول الله عن الملائكة وهي تراقب قلب المؤمن وترى ما به من المشاعر:

---

(١) أخرجها مسلم ٧٩٦.



﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾.

وصورة أخرى تـدل على رحمة الملائكـة ورقتهم وتأوههم على عباد الله حيث قال الله عنهم: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ واستغفارهم لأهل الأرض عامةً إما أن يبقى على عمومه فهم يطلبون مغفرة الله لكل أحد مؤمن وغيره، أو أنهم يطلبون من ربهم حلمه وإمهاله لأهل الأرض لما يرونه من أفعالهم التي لا تليق بالله، وهم أعلم المخلوقات بربهم.



ومع هذه الرقة والرأفة لك أن ترى غيرة الملائكة وغضبهم ممن لم يؤمن بربه وقـد أمهله الله حتى توفـاه، وأمر الملائكة بقبض روحه، فكيف يكون قبضهم لروح مَن لم يعرف ربهم ولم يؤمن به ويكابره ويعانده، وصف الله لنا غضبهم فقال: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٧]، وقال عـن هـذا الضـرب: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ [الأنفال: ٥٠]. إن هـذا الضرب فرعٌ عن كمال محبتهم لمولاهم سبحانه وكمال غيرتهم له، ولما رأى الله ـ وهو العليم ـ هذه الغيرة قال عنها: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]. ولكمال غضبهم لله جعل الله خزنة النار



منهم لئلا تأخذهم في الله رأفة أو رحمـــة، وهذا أعلى ما يكون عليه الإيمان أن يرحم مـــن يرحمه الله ويغضب لمن يغضب الله عليه، فقال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ [المدثر: ٣١].

والقرآن يخبرنا عن صلاتهـــم علينا ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الأحزاب: ٤٣] اقرأها مرة ثانية، الملائكة تصلي علينا أي تدعو لنا بأن يخرجنا الله من الظلمات إلى النور، فلماذا انشـــغلت الملائكـــة بنا فأخذت من أوقاتها المعمـــورة بذكر الله لتدعو لنا؟ فلمـــاذا يا تُرى اختارت الملائكة هذا الدعاء؟!



إن الملائكة خُلقوا من نور، ويرون نور المؤمن ونور عمله ونور قرأنه ونور ذكره لله، ويرون ظلمات الشياطين، فالشياطين تتواجـــد في الظلمـــات، والملائكة ترى الظلمة تتســـلل لقلب المؤمـــن على هيئة شـــهوة أو تعلـــق بغير الله أو رجـــاء لغيره أو خوفٍ من غيره والملائكة تغار على قلب المؤمن تريده أن يبقى معمورًا بنور الله، فلكمال وعظمـــة محبتها لله تحب دينه وشرعه وأولياءه، فتسأل ربها أن يرحم المؤمنين ويخرجهم من الظلمات إلى النور. ما يُدريك لعل بعض هداية الله لك هي من اســـتجابته لدعاء الملائكة لك فأخرجك الله من الظلمات إلى النور. إن القرآن يريد أن يعيد علاقتنا بالملائكة إلى حجمها



اللائق بها فيجعلها ركنًا في الإيمان لا يقوم الإيمان إلا به، كما أن القرآن يعيد لنا مفهوم النور، وأن نراجع أنفسنا في فقه النور وطُرق تحصيله، ولا يكون ذلك بعد الله إلا عن طريق الملائكة فمادتهم نور، ولأنهم أنوارٌ كاملةٌ أذن الله أن يعرجوا إليه وينزلوا من عنده، ولا يأخذون معهم إلا ما كان نورً لعلمهم بأن الله نور لا يقبل إلا نــورًا، كما قــال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ فمن الذي يصعد بالكلم الطيب إلى الله؟ لم يأذن الله لأحــد إلا للملائكة لأنهم نورٌ، فالتســبيحة والتهليلة والآية والعمل الذي يخرج من قلبٍ نوَّره الله بالإيمان فعظَّم الله ومجَّده وأخلص عمله لربه ابتغــاء وجهه وحده يكون لأعماله نورٌ، فتحمله الملائكةٌ وهم نــورٌ فيجتمع نورهم مع نور عمل المؤمن، فيصعدوا بذلك العمل فرحين به لعلمهم بفرح الله به، فهم أعرف المخلوقات بما يحبه الله وما يفرحه، ألا تتوقع بعد ذلــك أن تدعو الملائكــة لصاحب ذلك العمــل بأحب دعوة عندهم وهي إخراج الله له من الظلمات إلى النور؟!.

والمقصود أن قارئ القرآن يكون قد استجلب الملائكة من حوله، ويرون نور قلبه، ونور قلبه يكون بحســب ما قام به من خشية الله وخوفه ورجائه ومحبته من جرَّاء من يقرأه من آيات، فأين هذا ممن يقرأ ولا يفهم المعاني؟!







القسم الخامس

الفجوة بين العلم بالقرآن والعمل به

الفجوة بين القرآن والعمل به:

إنَّ اقتضاء العلـم العمل وارتباط العقيـدة بالحياة والدنيا بالآخرة سمةٌ بارزةٌ من سمات تعاليم رسول الله ﷺ لأصحابه قولاً وعملاً، فكان يربيهم على أنه لا يوجد في هذه الشـريعة فصلٌ بين العلم والعمل ولا بين الدُّنيا والآخرة[١].



وهذا لوجـود ارتباط بين القـوة العلمية والقـوة العملية، فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق، ويجتنب أسـباب الهلاك، فقوته العلمية كنورٍ عظيم بيده يمشـي في ليلة عظيمة مظلمة، فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق ومعاطبها، وبالقوة العملية يسـير حقيقةً، فإنَّ السَّـير هو عمل المسـافر، وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأبصر المعاثر؛ فقد حصل على شطر السَّـعادة، وبقي عليه الشـطر الآخر وهو أن يضع عصاه على عاتقه ويشمر مسافرًا في الطريق[٢].

---

(١) تربية النبي ﷺ لأصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ في ضوء الكتاب والسُّنة، ص(١٢١).

(٢) طريق الهجرتين بتصرف، ص(١٨٣).



ولهذا؛ فإنَّ لفظ (القُــرَّاء) كان يُطلق ويُرادُ به مَن كان لديه علم بالقرآن وأحكامه والسُّــنة، وتعبَّد لله باتباعهما، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «وكان القُرَّاءُ أصحاب مجلس عُمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شبانًا»(١).

ويبدو أن انفصال قراءة القرآن عــن العمل به بدأت مُبكرًا في الأمة، فهذا الفضيل بن عياض رضي الله عنه يقول: «إنما نزل القرآن ليعمل به فاتخذ الناس قراءته عملاً»، وهُمْ بهذا يحاولون إشباع ضمائرهم بهــذا، والفضيل يبيِّن لهم طريقــة العمل، فلما قيل: كيف العمل بــه؟ قــال: «أي ليحلوا حلاله ويحرِّمــوا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه»(٢).



ومن أخطر الآثــار التــي وردت ما جاء عــن علماء بني إسرائيل ـ وهم شــبهٌ لنا ـ فقال وهب بن مُنبه رحمه الله: «قال الله تعالى فيما يعيب به أحبار بني إســرائيل: أتفقهون لغير الدِّين، وتتعلمون لغير العمل، وتبتاعون الدُّنيا بعمل الآخرة، تلبســون جلود الضــأن، وتخفون أنفــس الذئاب، وتَنقُــون القذى من شــرابكم، وتبتلعون أمثال الجبال من الحــرام، وتُثْقِلُون الدِّين

(١) صحيح البخاري، (٧٢٨٦).

(٢) اقتضاء العلم العمل، ص(٧٥).



على النَّاس أمثال الجبال، ولا تعينونهم برفع الخناصر؟ تُطَوِّلُون الصَّلاة وتبيضون الثياب، وتغتصبون مال اليتيم والأرملة، بعزتي حلفت لأضربنكم بفتنة يضل فيها رأي كل ذي رأي، وحكمة الحكيم»(١).

ولو تأملنا فقرات هذا الأثر لوجدنا أن اختلال الظَّاهر والباطن هو العلامة البارزة في الحديث، حتى أصبح لباسهم وهو ظاهرهم جلود الضأن، وباطنهم أنفس الذئاب، ولاحظوا إشباع الضمير بطول الصلاة؛ ليُخفف من تأنيب الضمير، ومع هذا في قلوبهم حسد فيُثقِلون الدِّين على النَّاس، وأساس هذه الأمراض كلِّها العلم لغير العمل، ومن ذلك قراءة القرآن لغير العمل به.



ومما يعين على فهم كلام الله: الإخلاص لله، كما قال أبو عبد الله الرُّوذباري رَحِمَهُ اللَّهُ: «العلم موقوفٌ على العمل، والعمل موقوفٌ على الإخلاص، والإخلاص لله يورث الفهم عن الله»(٢)، كما أن العمل بالقرآن يعين على حفظه.

---

(١) أخرجه أبو داود في (الزهد)، (٧)، وابن أبي شيبة، (٨/ ٣١٠)، والبيهقي، (٥/ ٦٩٥٣).

(٢) اقتضاء العلم العمل، ص(٣٢).



وعلاقة العلم بالإيمان وثيقة، فانفــراد أحدهما عن الآخر يعتبر خللاً فــي التربية الإيمانيــة، كما قال ابــن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقبض الأمانة والإيمان ليس هو قبض العلم، فإنَّ الإنسان قد يؤتى إيمانًا مع نقــص علمه، فمثل هذا الإيمــان قد يرفع من صدره كإيمان بني إســرائيل لما رأوا العجــل، وأما مَن أوتي العلم مع الإيمان؛ فهذا لا يرفع من صدره، ومثل هذا لا يرتدُّ عن الإســلام قطُّ، بخلاف مجرد القرآن أو مجرد الإيمان؛ فإنَّ هذا قد يرتفع، فهذا هو الواقع، لكــن أكثر ما نجد الردة فيمن عنده قرآن بلا علم وإيمان أو مــن عنده إيمان بلا علم وقرآن، فأما مَن أوتي القرآن والإيمان فحصل فيه العلم؛ فهذا لا يرفع من صدره، والله أعلم[1].



ولم يكن العلم في عهد السَّلف كالثوب يُلبس للتَجَمُّل، إنما العلم للعمل، وكانوا يرون أن العلم إما حجةٌ لك أو عليك، ولهذا لا يستكثرون منه إلا للعمل، وَقَدْ كَانَ فَتىً يَخْتَلِفُ إِلَى أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَــةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، فَيَسْــأَلُهَا وَتُحَدِّثُهُ، فَجَاءَهَا ذَاتَ يَومٍ يَسْأَلُهَا فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ، هَلْ عَمِلتَ بَعْدَ مَا سَــمِعتَ مِنِّي؟ فَقَــالَ: لَا وَاللهِ يَا أُمَّه، فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ، فَبِمَا تَسْتَكْثِرُ مِنْ حُجَجِ اللهِ عَلَينَا وَعَلَيكَ؟!»[2].

(١) مجموع الفتاوى، (١٨/ ٣٠٥).

(٢) اقتضاء العلم العمل، ص(٦٠).



إنَّ لدينا فجوةً بين القرآن والواقع الذي نعيشه وهي فجوة كبيرة جدًّا؛ فكَــمْ مِن آية نقرؤهــا تخالف ســلوكنا تمامًا، أو تخالف عادةً اجتماعية لدينا، أو تخالف تصورًا عندنا، علينا أن نقول هــذا الأمــر ويتغشــانا الحياء مــن الله والخضــوع له، والاعتراف بين يديه بالتقصير، وأن نلهج بالدُّعاء بالمغفرة على مخالفتنا لكلام الله.

ألم نقرأ قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمــران: ٣١]؛ فما حقيقة اتباعنا للنبي ﷺ ؟! يُنْبِئكَ عن ذلك مقدار حفظنا لأحاديث السُّنة النبوية!!



وقوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨] يقرأها البعضُ ويداومُ على تفويت صلاة الفجر!!

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥] يقرأها ولا يحفظ!!

وقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ [غافر: ١٩] وأعيننا تخون - عفا الله عنا جميعًا!!

وقوله تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] والقلب أحيانًا يقلق فلا يعالج قلبــه بذكر الله مع أنه يقرأ الآية ويفهم معناها!!

وقولــه تعالــى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجـرات: ١٢] والظن عندنـا يزداد، كأن كلمــة (اجتنبوا) لينة المعنى سهلة الشأن!!

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائـدة: ٩٠] فلننظر إلى نسب المخدرات والمسكرات لنعلم مدى استجابتنا للآية!!

وقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]؛ فماذا نفعل مع المؤمنين حال الخصومة أو موقف خاطئ عارض؟! هل يكون هناك خفض جناح أو كسر جناح؟!



وقولــه تعالــى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم: ٥٩] هل تتوقعون أننا رأينا هؤلاء الخلف؟! أو أننا المقصودون؟!

وقولــه تعالــى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ونحن نقرأ أن أهل الشكور قليل، فهل جاهدنا أنفسنا لنكون من القليل؟!

وقولــه تعالــى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ فما حسُّ الدعوة في حياتنا؟!



وقوله تعالـــى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥]؛ فما نسبة ذكرنا لله مقارنةً بذكرنا لغيره.

أما آيات العقيدة وأعمال القلوب والولاء والبراء والتوحيد والشـــرك والهوى وغيرها؛ فالخلل عندنا نرفعـــه لله.. يا تُرى ما سبب هذه الفجوة بين ما نقرأه وما نعمل به؟!

وقد نقرأ الآيات التي فيها صفـــات المنافقين وفينا إحدى تلك الصفات، والآيات التي فيها أعمال الكافرين وقد نمارس بعضها من وجه دون وجه.



إنَّ بعض الآيـــات التي تُقـــرأ لو كان لهـــا لســـانٌ لَلَعَنَتْ صاحبها، الفم الذي يقرأ آيات النفاق والصد عن سبيل الله مع قلبٍ وجوارحٍ تنطوي علـــى ذلك، ماذا ســـتقول الآية له أثناء قراءته لها يا تُرى؟! نسأل الله ﷻ أن يعفو عنا.

وقال بعض العلماء: «إنَّ مَن عمل بالقرآن فكأنه يقرؤه دائمًا وإنْ لم يقرأه، ومَن لم يعمل بالقـــرآن فكأنه لم يقرأه وإنْ قرأه دائمًـــا، فمجرد التلاوة والحفـــظ لا يعتبر اعتبـــارًا يترتب عليه المراتب العلية في الجنة العالية»[1].

---

(١) عون المعبود مع حاشية ابن القيم، (٤/ ٢٣٨).



۞ هل قراءة القرآن لتحصيل الحسنات فقط؟

وَضَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأجر على حــروف القرآن، ففي كلِّ حرف عشر حسنات والله يضاعف لمن يشاء إلا أن ذلك وسيلة لغاية؛ فما هي الغاية من هذا الأجر؟

إنَّ الغاية أن تتحفز أنفسنا على القراءة للوصول إلى التدبُّر ثم التطبيق والعمل، إنَّ كلَّ شيءٍ في القرآن غير العمل به إنما هو وسيلة وليس غاية، إنه لا مقارنة بين حسنات تأتي من وراء قراءةٍ لا فهــم فيها ولا تدبُّر، وحســنات من وراء قــراءة تدبر وتفكُّرٍ، كما أن المحافظة على الــورد اليومي للقرآن هي أيضًا وســيلة للتفكُّر في معانيه وإعادتها على النفس، ثم العمل بها، فلا يمكن أن تنقلب الوسيلة غاية، ويكون المقصود هو مجرد المحافظة على الورد أو مجرد القراءة بدون فهم معنى.



إنَّ الأمر يستدعي أن نركِّز في قراءتنا للقرآن، وننتبه للألفاظ التي نقرؤها، وهو ما يعرف بحضور القلب أثناء القراءة، وذلك المــراد بقولــه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]، فإلقاء السَّــمع هــو الإنصات المأمور به في قوله: ﴿وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، ومعنى شهيد: أي حاضر القلب.



بهذا الحضور القلبي والانتباه الذهني لمعاني القرآن يفتح المجال أمـــام آيات القرآن لتفعل أثرها فـــي القلب، ومن ذلك زيادته للإيمان شيئًا فشيئًا.

فقراءة القرآن باب عظيم لتحصيل الحســنات، لكن قراءة التدبُّر والتأمُّل والتفكُّر أعظم بكثير من مجرد القراءة بدون فقه معنى، وهو المقصود الأعلى للقراءة.

إنَّ قوله ﷺ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ»[1] مثالٌ واقعي عملي على القراءة الصحيحة، وهي قراءة التدارس التي يستفيد منها قارئ القرآن مع إخوانه، ليس هذا الاجتمـــاع مجرد درس من دروس العلم يلقي فيه الشيخ تفسير الآيات والتلاميذ منصتون، إنما هو درس قرآني آخر يتشـــارك الجميع فـــي فهم معاني الآيـــات، وذكر الشواهد والأمثلة والآيات التي تشبه هذه الآية، وعرض الآيات على الواقع العملـــي، وتصحيح الأخطـــاء الحياتية على ضوء الآيات، يشـــارك في ذلك أهل المجلس، فيقومون وقد ازدادوا إيمانًا، وأَنِسُـــوا بالله وكلامه، ثـــم ينقلوا فوائد هـــذا المجلس



(١) صحيح مسلم، (٢٦٩٩).



وما دار فيه إلى أهلهم وبيوتهم، كلُّ ذلك ليُطبِّق المؤمن الإيمان واقعًا عمليًّا في حياته قولاً وسلوكًا؛ لأن القرآن يجعل هناك انسجامًا بين القول والفعل، فقارئ القرآن أدَّبه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣].

إنَّ مِن أمراضنا المعاصرة أننا نَمَّقنا القول وزخرفناه وزيَّناه ـ نسأل الله أن يعفو عنا ـ وكان ذلك على حساب العمل، وهذا مَكْمَن الخطأ، فنحن مأمورون بالقول الطيب؛ إلا أنه ينبغي الحذر؛ لأن القول الطيب المجرد قد يريح الضمير، ويُشعر العبد بأنه أدَّى ما عليه، وهذا يُعالج ذلك بالعمل بالقرآن، فيزداد العمل ويتقدَّم على القول.

إنَّ مِن نعم الله أن الله سهَّل قراءة القرآن، فهو يقرأ في كلِّ مكان ماعدا الخلاء، ويُقرأ على كلِّ حال ماعدا الجنابة، فلا يحتاج إلى أدوات وهيئات وطقوس معينة وهذا ليتوافق مع الأمر بقراءته.

الله سبحانه وتعالى يغضب لكلامه:

حينما تنتهك محارم الله؛ فإنَّ الله يغضب لحرماته، ولهذا خطب النبيُّ ﷺ في صلاة الكسوف وكان مما قال: «**إِنْ مِنْ**





أَحَدٍ أَغْيَرَ مِـــنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ، أَوْ تَزْنِــيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً»[1].

فالله سبحانه وتعالى يغار على الزنا؛ لما فيه مـــن انتهاك حرمات الله، والله ملك الملوك، والملوك يغضبـــون إذا انتهكت محارمهم ـ ولله المثـــل الأعلى ـ ولهذا يخســـف بالشـــمس والقمر لأجل انتهاك حرماته؛ فكيف إذا انتهكـــت حرمة كلامه سبحانه وتعالى الذي هو صفته، وأُهمل العمل به، وبُدِّل القرآن بغيـــره، فلا بُدَّ أن تنزل عقوبةٌ بذلك، وأشد العقوبات حينما يعاقب العبد ولا يشعر أنه معاقب، فزوال أثر القرآن من حياتنا، وذهاب لذته الكاملة عن قلوبنا أعظـــم العقوبات، ومـــن العقوبات ذهـــاب معانيه عن أذهاننا، وغيـــاب عقولنا عن اســـتحضاره فـــي تفاصيل حياتنا اليومية.. لا بُدَّ أن نستشعر أن ما نحن فيه من غياب أثر القرآن فينا هو نوع عقوبة بل أقسى العقوبات، نسأل الله العفو والعافية، وأن يعيذنا شر أنفسنا المقصرة.

وقد جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: «وَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ أَوْشَـــكَ أَنْ يُرْفَعَ. قَالُوا: وَكَيْفَ، وَقَدْ أَثْبَتَهُ اللهُ فِي قُلُوبِنَا، وَأَثْبَتْنَاهُ فِي الْمَصَاحِفِ؟! قَالَ: يُسرى عَلَيْهِ لَيْلاً، فَيَذْهَبُ

---

(١) المصدر السابق، (٩٠١).




مَا فِي قُلُوبِكُـــمْ، وَيُرْفَعُ مَا فِـــي الْمَصَاحِفِ، ثُمَّ قَـــرَأَ عَبْدُ اللهِ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإســراء: ٨٦]»[١]؛ فلماذا يسرى عليه ليلًا ويزول من القلوب؟! لأنه لا يُعمل به مع أنه يُقرأ في الألسن.

وهذا الزوال كان معروفًا عند السَّــلف؛ فقــد قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ اللهُ: «يُسرى بالقرآن ليلاً، فيرفع من أجواف الرِّجال، فيصبحون لا يصدقون حديثًا، ولا يصدقون النســاء، يتسافدون تسافد الحمير، فيبعث اللهُ ريحًا، فتقبض روح كل مؤمن»[٢].



وغضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعقوبته يُرفــع برضا الله ومعافاته، كما في دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سُخْطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ**»[٣]، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يرضى إذا تدبَّرنا كلامه وعملنا به.

---

(١) أخرجه الدارمي، (٣٣٤٤)، والبيهقي، (١٨٦٩)، وســعيد بن منصور في سننه، (٩٧)، وقال محققوه: «فالحديث صحيح لغيره بمجموع الطرق عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ».

(٢) ســنن ســعيد بن منصور (٩٦)، قال محققوه (٢/ ٣٣٤): «الحديث سنده رجاله ثقــات، لكنه ضعيف لعنعنــة مغيرة، فإنه مدلــس، ومع ذلك فهو مرسل؛ لأن إبراهيم النخعي لم يذكر مســتنده في الإخبار عن أمر غيبي كهذا، لكن قوله: (يســرى بالقرآن ليلاً، فيرفع من أجواف الرجال) صحَّ نحوه عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ».

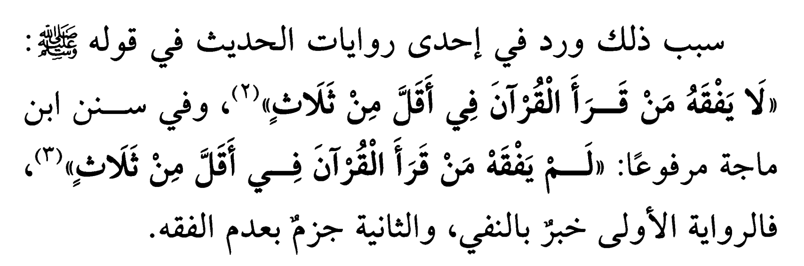
(٣) صحيح مسلم، (٤٨٦).



۞ هل يمكن أن ينفك معرفة معنى القرآن عن قراءته؟

لماذا نهى النبي ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن الختم بأقل من ثلاث ليالٍ؟[1] لو كان الأمر متعلقًا بمجرد قراءة الأحرف والأجر المترتب على ذلك لما نهى النبي ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن ختم القرآن بأقل من ثلاث ليالٍ، ألا يستطيع شخصٌ أن يختم القرآن بليلتين مثلاً وهو يملك ٤٨ ساعة؟! ألا يمكن أن يقرأ قراءة مفهومة غير سريعة جدًّا؟! بالتأكيد هو يستطيع، إذن؛ لماذا نهى عن ذلك؟! وما هو السِّر في الثلاث ليالٍ؟!





سبب ذلك ورد في إحدى روايات الحديث في قوله ﷺ: «**لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ**»[2]، وفي سنن ابن ماجة مرفوعًا: «**لَمْ يَفْقَهْ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ**»[3]، فالرواية الأولى خبرٌ بالنفي، والثانية جزمٌ بعدم الفقه.

والعجيب حقًّا لو أن خطابًا صدر من جهة عملِنا لحرصنا على قراءته ومعرفة معانيه، وإنْ كانت هناك كلمة تحتمل أوجهًا

---

(١) سنن الترمذي، (٢٩٤٩)، وصحَّحه الألباني.

(٢) سنن أبي داود، (١٣٤٩).

(٣) سنن ابن ماجة، (١٣٤٧)، وصحَّحه الألباني.



لجمعنا قرائــن الأحوال مع استشــارة المتخصصيــن لمعرفة المعنى الصَّواب دون غيــره، فإذا قرأنا القــرآن اكتفينا بالأجر المترتب على الحروف وتوقفنا عند ذلك، فمَن المتسبب بهذا التعامل مع القرآن؟

لو تتبع باحثٌ بداية الانفصال بين قراءة القرآن وفقه معناه وسبب هذا الانفصال، ولماذا لم تكن كُتُب الفقه وسائر العلوم على هذا الانفصال؟

بالتأكيد هي مجموعةٌ من الأســباب ولا أعلم سببًا خاصًّا دون غيره، إلا أن الشَّــيطان قد نجح في إبعادنا عن فقه معاني كلام ربنا، وقد يُقبل أن الإنسان يستعجل قراءة القرآن أحيانًا في المواسم المباركة كرمضان وعشر ذي الحجة، إلا أن ذلك ليس على حساب معاني الآيات.

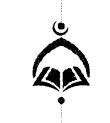


لم يقل أحدٌ من أهــل العلم أنه يجوز لقــارئ القرآن أن يستعجل القراءة من غير فقه لما يقرأه، خاصةً إنْ كان هذا عادةً له، إنَّ بعض أهل العلم يُرَخِّص في التَّخففِ من التأمُّل والتَفَكُّر في الأوقات الفاضلة، فقد لا يقف عند كلِّ آية، وقد يترك سؤال الله الرحمة عند آيــات الرحمة اســتعجالاً للوقــت، أو يترك الاستعاذة عند آيات العذاب، لكن قدرًا من فقه المعنى لا بدَّ أن



يوجد أثناء القــراءة، ثــم إنَّ القائلين بالتخفــف يخصونه في الأوقات الفاضلة ولا يكون ذلك عادةً.

وقد ذكر الآجــري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه العظيــم (أخلاق حملة القرآن) عددًا من الأســئلة التي يثيرها قــارئ القرآن وهو يقرأ القرآن، فقال: «إِذَا دَرَسَ الْقُرْآنَ فَبِحُضُورِ فَهْمٍ وَعَقْلٍ، هِمَّتُهُ إِيقَاعُ الْفَهْمِ لِمَا أَلْزَمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ اتِّبَاعِ مَا أَمَــرَ، وَالانْتِهَاءِ عَمَّا نَهَى، لَيْسَ هِمَّتُهُ مَتَّى أَخْتِمُ السُّورَةَ؟ هِمَّتُهُ مَتَّى اسْتَغْنِي بِاللهِ عَنْ غَيْرِهِ؟ مَتَّى أَكُونُ مِنْ الْمُتَقِينَ؟ مَتَّى أَكُونُ مِنْ الْمُحْسِــنِينَ؟ مَتَّى أَكُونُ مِنْ الْمُتَوَكِّلِيــنَ؟ مَتَّى أَكُونُ مِنْ الْخَاشِــعِينَ؟ مَتَّــى أَكُونُ مِنْ الصَّابِرِينَ؟ مَتَّى أَكُونُ مِنْ الصَّادِقِينَ؟ مَتَّى أَكُونُ مِنْ الْخَائِفِينَ؟ مَتَّى أَكُونُ مِنْ الرَّاجِينَ؟



مَتَّى أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا؟ مَتَّى أَرْغَــبُ فِي الآخِرَةِ؟ مَتَّى أَتُوبُ مِنْ الذُّنُوبِ؟ مَتَّى أَعْرِفُ النِّعَمَ الْمُتَوَاتِرَةِ؟ مَتَّى أَشْــكُرُ عَلَيْهَا؟ مَتَّى أَعْقِلُ عَنْ اللهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ الْخِطَــابَ؟ مَتَّى أَفْقَهُ مَا أَتْلُو؟ مَتَّى أَغْلِبُ نَفْسِــي عَلَى هَوَاهَا؟ مَتَّى أُجَاهِــدُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْجِهَادِ؟ مَتَّى أَحْفَظُ لِسَــانِي؟ مَتَّى أَغُضُّ طَرْفِــي؟ مَتَّى أَحْفَظُ فَرْجِي؟ مَتَّى أَسْــتَحِيي مِــنْ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاءِ؟ مَتَّى اشْــتَغِلُ بِعَيْبِي؟ مَتَّى أُصْلِحُ مَا فَسَدَ مِنْ أَمْرِي؟ مَتَّى أَحَاسِبُ نَفْسِي؟



مَتَّى أَتَزَوَّدُ لِيَوْمِ مَعَادِ؟ مَتَّى أَكُونُ عَنْ اللهِ رَاضِيًا؟ مَتَّى أَكُونُ بِاللهِ وَاثِقًا؟ مَتَّى أَكُونُ بِزَجْرِ الْقُرْآنِ مُتَّعِظًا؟ مَتَّى أَكُونُ بِذِكْرِهِ عَنْ ذِكْرِ غَيْرِهِ مُشْتَغِلاً؟ مَتَّى أُحِبُّ مَا أَحَبَّ؟ مَتَّى أَبْغَضُ مَا أَبْغَضَ؟ مَتَّى أَنْصَحُ للهِ؟ مَتَّى أُخْلِصُ لَهُ عَمَلِي؟

مَتَّى أُقَصِّرُ أَمَلِي؟ مَتَّى أَتَأَهَّبُ لِيَوْمِ مَوْتِي وَقَدْ غُيِّبَ عَنِي أَجَلِي؟ مَتَّى أُعَمِّرُ قَبْرِي؟ مَتَّى أُفَكِّرُ فِي الْمَوْقِفِ وَشِدَّتِهِ؟ مَتَّى أُفَكِّرُ فِي خُلْوَتِي مَعَ رَبِّي؟ مَتَّى أُفَكِّرُ فِي الْمُنْقَلَبِ؟ مَتَّى أَحْذَرُ مَا حَذَّرَنِي مِنْهُ رَبِّي مِنْ نَارٍ حَرُّهَا شَدِيدٌ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَغَمُّهَا طَوِيلٌ، لا يَمُوتُ أَهْلُهَا فَيَسْتَرِيْحُوا، وَلا تُقَالُ عَثْرَتُهُمْ، وَلا تُرْحَمُ عَبْرَتُهُمْ، طَعَامُهُمْ الزَّقُومُ، وَشَرَابُهُمْ الْحَمِيمُ؟»[1].



إنَّ جواب هذه الأسئلة لا يكون بقراءة سريعة تحفظ فيها الحروف ويهمل المعنى، لكن التَفَكُّر بسؤال واحد كفيلٌ أن يغيِّر حياتك وينوِّر دربك.

التوازن بين الاهتمام بالحروف مع الاهتمام بالمعاني:

أكثر خلل يواجه المؤمنين اليوم حرصهم على حفظ حروف القرآن، والتدقيق في مخارجه، والتفنن في أحكام التجويد، ولا يقارن ذلك بالحرص على معرفة معاني القرآن،

(١) أخلاق حملة القرآن، ص(٢٧).



ولهذا لا تعجب أن تجد حافظًا للقرآن متقنًا له وهو لا يعرف كثيرًا من معاني غريب القرآن، وهذا من العرب؛ فما بالك بالعجم؟!

والله سبحانه وتعالى أنزل الكتاب والميزان كما قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ ومن ميزان العدل أن يكون هناك توازن بين حفظ الحروف وفهم المعنى، ومما يساعد على هذا الميزان أن القرآن بلسان عربي، فكلمات القرآن نستعملها في حياتنا اليومية، ومع أن اللُّغة العربية في زماننا ليست بقوتها القديمة إلا أنها لم تفقد عربيتها وإنْ تغيَّرت اللهجة أو النطق إلا أن المعنى ما زال كما هو في اللُّغة العربية الأولى، وخُذْ أمثلةً من ألفاظ القرآن: فكلمة (قُلْ)، وكلمة (أحد)، وجملة (لم يلد ولم يولد) لازلنا نستعملها في حياتنا بنفس المعنى، حتى كلمة (كفوًا) نستعملها في عاميتنا المحلية مع اختلاف النطق قليلاً إلا أن المعنى لازال هو نفس المعنى، فالكفو هو المثل والنظير، وقريبًا من هذا كلمة (الصمد) والتي نستعملها فنقول للابن حينما نريد تشجيعه: اصمد، أي: اثبت وكُنْ مستغنيًا عن غيرك، ومجموع هذه الكلمات هو سورة الإخلاص التي هي أعظم سورة في القرآن.





ولو ذهبنا نســتعرض كثيرًا من آيات القرآن لوجدناها على هذا النحو، وليس هذا الكلام مدعاة إلى استباحة تفسير القرآن والتهوين منه، لكن المقصود منه إزالــة الحواجز التي زُرعت بيننا وبين فهم القرآن، فالمسلم الذي يريد أن يفهم كلام مولاه لن يعجزه ذلك في أغلب آيات القرآن، ســيفهم منها ماذا يريد منه ربه؟ وبمــاذا يخبره؟ فإنْ كان مع مصحفه تفســيرٌ للقرآن؛ لأصبح الأمر يسيرًا بحمد الله.

إنَّ فضل الله علينا ـ معشــر العــرب ـ عظيم في أن جعلنا عربًا وأنزل كتابه عربيًا، ولكي ندرك مقدار النعمة تخيَّلوا لو أننا عجم لا نعرف معاني الكلمات التاليــة: كلمة (الحمد) وكلمة (مالك)، وكلمة (إياك نعبد)، وجملة (اهدنا الصراط المستقيم)، وغيرها من الكلمات التي يعرفها أبناؤنا بحمد الله، أقول ذلك لأذكِّر نفسي وأذكِّركم بشــكر الله على هذه النعمة التي يُغفلنا الشــيطان عنها، ويريد بذلك ألا نســتثمر هذه العربية في فهم كلام ربنا، وأفضل ما نعالج به وضعنا المعاصر الاطلاع على برنامج الصحابة أثناء نــزول القرآن فكيف كان؟ وهل يقدِّمون الحفظ على غيره؟ وهــل كانوا يحفظون الكلمــات الغريبة؟ وسيأتي بيانه.





۞ القرآن بلا معنى كالجسد بلا روح:

سـمَّى الله سبحانه وتعالى كلامه روحًا كما قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ ﴾ [الشورى: ٥٢]، ولتسـميته روحًا دلالة على أن الحياة تكون به، وأن الجسد بلا قرآن جسـدٌ بلا روح حقيقية وإنْ كان يتنفس، وكذلك قـراءة القرآن بدون فهم المعنى فهي قراءة خالية من الروح. إنَّ مرضين مذكوران في القرآن سـبب لكون القرآن بلا روح، وهما المذكوران في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعـراف: ١٤٦]، وهما: التكذيب والغفلة.



والمؤمن وإنْ كان مصدقًا بكلام الله، وأن الله تكلَّم به، إلا أنه غافلٌ عنه وعما فيه، إنَّ من الغفلة أن تقرأ مرضك في الآية وعلاجك ثم لا تنتبه له، فكم نقرأ آية في الظلم وآية في الفسق وآية في الجحد وآية في التكذيب وأخرى في الربا وفي صفات المنافقين وأمراض اليهود والنصارى وغيرها، وكلُّ آية تخاطب فينا مرضًا تنطوي عليه جوارحنا وقلوبنا، ولم نفقه معناها، ولم نُنْزِلُها على حالنا، فاللسـان يقرأ آية الأمانة التي عُرضت على السـموات والأرض والجبال فأبَين أن يحملنها، ولو فتشنا في أمانة العلم التي نحملها، وأمانة الصـلاة التي نقوم لها، وأمانة اللسـان والعين، وأمانة الأبناء والبنات والأهل، وأمانة الرزق



وغيرها من الأمانات التـي نؤمر بإيفاء العقـود فيها ومع هذا نتحايل على تلك الأمانـات، أو نهمل رعايتهـا كما قال الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨]، كما أن كلَّ شعائر الله هي أماناتٌ وعقودٌ علينا الوفاء بها بناء على تصديقنا بوعد الله لمن يؤدي الأمانـة، ووعيد الله لمنتهكها، وكم حكى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنا خيانة أهل الكتاب لدينهـم وكتبهم، وخيانة الأعين عما حرم الله ليعلم الله مَن يخافه بالغيب.

وآية ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٧] هي تخاطب كلَّ ذرة في جوارحنا وتطهرها عن التلبـس بالظلم، فالمفترض أن تزلزل هذه الآية باطننا وظاهرنا لتنفض عنا أيَّ صورة من صور الظلم الذي نعلمه، ثم نستغفر الله مما يعلمه ولا نعلمه.. أليس من الغفلة أن نقرأ هذه الآية وبيوتنا تَعُجُّ بصورٍ من ظلمنا، كما أن علاقاتنا أيضًا مع غيرنا يشوبها الظلم؟!

وهنا سؤال آخر: إلى أيِّ مدى تمتد الغفلة عن القرآن؟

والجواب: أنها تمتد لتصل إلـى آيات الله الكونية الكثيرة، إنَّ كلَّ ما حولنا هو آيات لله أيضًا، فمن لم يعتبر بآية يقرأها فلن يعتبر بآية يراهـا، فمَن لم ينتفع بأذنيه فلـن ينتفع بعينيه أيضًا، فالعين والأذن أدوات انتفاع تقربك إلى الله، فمَن لم يستعملها



لما خُلِقن له فقد ظلمهما، فانظرْ كيف امتدت الغفلة إلى سائر حياتنا، كما أن مَن عقل آيات القرآن امتدت عبرته ويقظته بآيات الكــون كمــا قــال تعالــى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمــران: ١٩٠].. ففهم القرآن هو روح الحياة كلها.



وقارئ القرآن الذي يقرأ حروفــه ويغفل عن معانيه، ويقرأ آياتٍ تهدِّده هو وتتوعده وهو غافــلٌ عن ذلك، فهو يقرأ حتفه وهلاكه، ضــرب الله له مثلاً غريبًا فقــال: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ٥]، فيأتي الشــيطان ونحن نقرأ هذه الآية فيلفــت انتباهنا على كلمــة ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ثم نرجع إلى أنفســنا فلا نجد فيها تكذيبًا فيَهُون علينا وقع الآية، بينما مقصود الآية أن كلَّ مَن غفل عما يقرأه ويتعلَّمه ففيه صفة من صفات الحمــار، والناس ما بين مُقِلٍّ ومســكثر، كما قال: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المدثــر: ٤٩ ـ ٥٠]، وإذا كانت هناك عقوبــات تنتظر المكذبين بآيات الله؛ فهناك عقوبات تنتظر الغافلين أيضًا، قد تختلف في نوعها وشدتها ولكن عذاب الله شديد.



أليس مــن الغفلة أننا نقرأ آياتٍ ذكــر الله ﷻ فيها العذاب الشديد، وذكر لنا غضبه ومقته وسخطه ولم يخالطنا شعورٌ يليق بذلك الغضب الرباني؟! إنَّ هذا كلَّــه يدعونا لإعادة النظر في قراءتنا للقرآن وفقهنا لمعانيه.

لماذا سورة يوسف؟

ســورة يوســف المحببة لدى المســلمين، حتى أننا غالبًا لا نزال نذكر أول مجلس شُرحت لنا فيه هذه السورة، ولا زال البعض منا يتذكر أول معلم شرحها، سورة يوسف يقرأها الإمام في صلاة رمضان فلا نشــعر بطول الصلاة ولو قرأ نفس مقدار الأوجه من سورة أخرى لأصابنا التعب.



من شدة تفاعلنا مع سورة يوســف نجد أن آياتها تعرض مشاهد القصة أمام أعين قلوبنا، فكأننا نراهم حينما تشاوروا في قتل يوسف عليه السلام أو إلقائه، وكأننا بجوارهم حين جاءت سيارة فأرسلوا واردهم وأخرجوا يوسف عليه السلام من البئر، وكم نتأسف إذا سمعنا ســعر نبي الله يوســف عليه السلام ﴿بِثَمَنٍۢ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠].

وكذلك مشــهد المراودة عن النفس لا يغيب عن الذهن، والعين كأنها ترى يعقوب عليه السلام وهو يبكي على يوســف عليه السلام ،



ومما يــكاد أن يقطع القلب آيــة: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ [يوســف: ٧٨]، فإذا قرأ القارئ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]، وقرأ: ﴿أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤]، فلا تكاد أُذنك تخطي صوت باكٍ من المصلين، وقول يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] قد جعلها بعض الناس شعارًا تحت اسمه في وسائل التواصل من شــدة التفاعل مع الآية، ولأنه ينزلها على حاله.



والعجيب كذلك في سورة يوســف أن الأعين تدمع غالبًا عند قراءتها مع أنها تخلو من ذكر العذاب والتهديد، والأعجب أن بعض الكلمات ليست واضحة المعنى وضوحًا كاملاً، ومع ذلك يتضح معناها بالسياق، مثل كلمة (عصبة) وكلمة (فراودته) وكلمة (يرتع)، حتى بعد الانتهاء من سورة يوسف يُحس القارئ والسَّــامع لها بأن الله قريب منه، والفرج قد جــاء، ويعلق في لسانه ترديد آية من السورة تناسب ظرفه الذي يعيشه كقول الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

يتفاعل الناسُ مع ســورة يوســف بما يناســب ظروفهم الدنيوية الخاصة، وإلا فهي علاج لزيادة الإيمان والتعلق بالله، وتجديد العقيدة في القلوب، وتجريد الاعتماد على الله وحده،



وطرد علائق الشِّـــرك من القلوب، وفيها من أسماء الله وصفاته ما هو كفيـــل أن يرقي المؤمـــن في عتبـــات العبودية لله، وفي السُّـــورة تصحيح لتصـــور الزهد الشـــرعي الـــذي يحبه الله، فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من أئمة الزهد مع ما هو عليه من المنصب، وفيها الجمع بين عبودية التواضع والافتقار وعبودية المكانة والأمانة، وفيها تحري لمعنى القوي الأمين، وفيها إثبات البعث والزهد في الدُّنيا وحضور اليوم الآخر، وغير ذلك من مقامات الدين.

فما سر تفاعل الناس مع سورة يوسف؟



الجواب هو: وضوح معناها لدى القارئ والمســـتمع، فانظرْ كيف فعلت السورة حينما فُهم معناها، فكيف لو كان القرآن كله عندنا مثل وضوح هذه السُّـــورة، فاللذة التـــي حصلت مع هذه الســـورة تزداد مع غيرهـــا، والتغيُّر في النفـــس والقلب يحدث سريعًا.

إنَّ التعامل مع ظاهر سورة يوسف بحكم لُغتنا العربية التي امتن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علينا بهـــا ينبغي أن يمتد إلـــى غيرها من ظواهر الآيات الأخرى، فنعرف معناها بحكم العربية أيضًا على ظاهر الآية، وكلما كان الإنســـان أكثر علمًا كان أشد انتفاعًا بما يقرأه من آيات ويسمعه.



التفاعل مع قراءة القرآن:

من هدي النبي ﷺ أنه «**كَانَ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ**»[1]، وفي رواية: «**لاَ يَمُرُّ بِآيَةٍ فِيهَا اسْتِبْشَارٌ إِلَّا دَعَا اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَرَغِبَ**»[2].

واسمعوا هذه الآثار العجيبة التي تدلُّ على تفاعل قرائها مع القرآن:

- كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الصَّلاةِ وَلَهُ أَزِيزٌ مِثْل صَوتِ غَلَيَانِ القدرِ الذي يُطبَخُ فِيهِ الطَّعَامُ[3].

- وَقَرَأَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطور: ٧ ـ ٨] فَرَبَا مِنْهَا رَبْوَةً عِيدَ مِنْهَا عِشْرِينَ يَوْمًا[4].

- وَقَرَأَ عُمرُ رضي الله عنه مَرةً قَولَ اللهِ تَعالَى: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]، فَبَكَى حَتَّى انْقَطَعَ صَوتُهُ وَرَكَعَ[5].

---

(١) صحيح مسلم، (٧٧٢).

(٢) أخرجه أبو عبيد في (فضائل القرآن)، (١٥٠).

(٣) أخرجه أحمد، (٤/ ٢٥)، وأبو داود في (السنن)، (١٦١)، وصحَّحه الألباني في (صحيح أبي داود)، (٨٣٩).

(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(١٣٧).

(٥) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(١٣٧)، وتاريخ عمر لابن الجوزي ص(١٩١).



- وَقَرَأَ عُمرُ رضي الله عنه مَـرةً قَـولَ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، فَبَكَى حَتَّى سُمِعَ نَشِيجُهُ مِنْ وَرَاءِ الصُّفُوفِ، مِثْلُ بُكَاءِ الصَّبِيِّ إِذَا ضُـرِبَ فَلَمْ يُخْرِجْ بُكَاءَهُ فَرَدَّدَهُ فِي صَدْرِهِ.

- وَجَاءَ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ سُحَيْمٍ رضي الله عنه، قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ رَأَى ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما يُصَلِّي وَهُوَ يَتَرَجَّـحُ وَيَتَمَايَلُ وَيَتَأَوَّهُ، حَتَّى لَوْ رَآهُ غَيْرُنَا مِمَّنْ يَجْهَلُهُ لَقَالَ: أُصِيبَ الرَّجُلُ، وَذَلِكَ لِذِكْرِ النَّارِ إِذَا مَرَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَـى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] أَوْ شِبْهُ ذَلِكَ[١].

- وَكَانَ السَّلَفُ يبكونَ عِنْدَ قِراءةِ القُرآنِ وَالذِّكرِ كَما حَكَاهُ الحَسنُ رحمه الله[٢].

وقد عقد القاسم بن سـلام رحمه الله في (فضائل القرآن) بابًا بعنوان: باب ما يسـتحب لقارئ القرآن من الجواب عند الآية والشَّهادة لها وذكر عددًا من الآثار التي فيها تفاعل بين القارئ وقراءته للقـرآن، ومنها: قول عَبْد اللهِ بْن السَّـائِب رضي الله عنه: «أَخَّرَ عُمرُ بْنُ الْخطابِ رضي الله عنه الْعشَاءَ فَصَليتُ أَنَا، فَدَخلَ وَأَنَا لَا أَدْرِي

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(١٣٧).

(٢) موسوعة ابن أبي الدنيا، (٣/ ١٩٠).



وَأَنَا أَقرَأُ: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ [الذاريات: ١] حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، فَرفَعَ صَوتَهُ حَتَّى مَلأَ الْمَسْجِدَ أَشْهَدُ أَشْهَدُ».

وكذلك: عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعَ رَجُلاً قرأَ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِي وَعِزَّتِكَ، فَجَعَلْتَهُ سَمِيعًا بَصِيرًا وَحَيًّا وَمَيِّتًا».

وكذلك: عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعَ رَجُلاً، يَقْرَأُ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا لَيْتَهَا تَمَّتْ!!».



وكذلك ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَرَأَ فِي الصَّلاةِ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠]، فَقَالَ: «سُبْحَانَكَ وَبَلَى»[١].

فالتفاعل بين قارئ القرآن والقرآن أمرٌ محمود، ومن صوره:

- إذا مرَّ بآية رحمة سأل الله الرحمة.
- وإذا مرَّ بآية عذاب استجار بالله من عذابه.
- وإذا مرَّ بآية فيها أمرٌ بالتسبيح سبَّح.
- وإذا مرَّ بآية فيها أمرٌ بالتكبير كبَّر.

---

(١) أخرج الآثار أبو عبيد في (فضائل القرآن)، ص(١٦٢).



- وإذا مرَّ بآية فيها اسم لله وصفة من صفاته مجَّد وعظَّم الله.
- وإذا مرَّ بقصةٍ تعجَّب منها، وهلَّل الله وكبَّره.
- وإذا مرَّ بشيءٍ فيه أَلَمٌ تأوَّه.

ويجمع مع هذا التباكـي والترديد لبعض الآيات، فيجتمع ظاهره وباطنه مع القرآن وعليه، فهذا مما يجعل القارئ مستيقظَ الذِّهن، حافزَ الهمة لتلقي الأوامر، سريعَ الاستجابة.

بعدما يمتلئ القلبُ من هذه المعاني سـيبحث عن وسيلة يعبِّر فيهـا عن حركتـه وإرادته، فيجـد الباب أمامـه مفتوحًا للعبادات، فيُفَرِّغ ما أخذه مـن معاني القرآن فيها، فتجد يصلي صلاة بحضور قلب، وإذا دعا ربَّه دعاه منيبًا إليه، وإذا ذكر الله ذكره كأنه يراه، وهذا كلُّه سيكون على قدر ما أخذه القلب من معاني التعظيم والإجلال والتقدير لله سبحانه وتعالى حين قراءة القرآن.



ومن التفاعـل ما كان من الصَّحابـة رضي الله عنهم، فحين نزل قوله تعالـى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، أو قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقـرة: ٢٤٥] فهِمُوا معناهما وتفاعلوا معهما، فجـاء عـددٌ منهـم وتصدَّقـوا بأحـب ما لديهـم، فتصدَّق أبو الدحداح رضي الله عنه ببسـتانه وكان أحب أمواله إليـه، وكان فيه



ســتمائة نخلة[1]. آملُ منك ـ أيها القارئ العزيز ـ أن تُدَقِّق في عدد النخل، ستمائة نخل في ذلك الزمن!! ومع هذا تفاعل مع الآية وخرج منها كلها.

وكذلك جاء زيد بن ثابت رضي الله عنه، فتصدَّق بفرس كان يحبُّه جدًّا، فأعطاها النبي ﷺ ابنه أســامة، ثم قال له: «**لَقَدْ تَقبَّلَ اللهُ صَدقتَكَ**»[2].

وكذلك موقف معقل بن يســار رضي الله عنه حينمــا طُلِّقت أخته، فأراد زوجُها أن يراجعَهــا، فأبَى أخوها معقل، فدعاه النبي ﷺ فقــرأ عليه قولــه تعالــى: ﴿**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾ [البقرة: ٢٣٢]، فترك الحمية واستقاد لأمر الله[3].



وكذلك نســاء الصَّحابة لما نزل قولــه تعالى: ﴿**وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ**﴾ [النور: ٣١] قالت عائشة رضي الله عنها: «شَقَقْنَ الْبُرْدَ مِمَّا يَلِي الْحَوَاشِي، فَاخْتَمَرْنَ بِهِ»[4].

---

(١) تفسير الطبري، (٤/ ٤٣٠).

(٢) المصدر السابق، (٥/ ٥٧٦).

(٣) المصدر السابق، (٤/ ١٨٨).

(٤) المصدر السابق، (١٧/ ٢٦٢).

هل حفظُ القرآن هو العمل به؟

أيُّهما أسرع في زماننا المعاصر: مبادرتنا لحفظ القرآن؟ أم مبادرتنا لفهمه وتطبيقه؟! أظن أن الجواب واضح معروف.

يشتغل البعض بحفظ القرآن وتكرار مراجعته وإتقانه وضبطه ومعرفة الآيات المتشابهة والتفريق بينها، وما أسعد هذا الأعمال الصالحة، فانتشار تعليم القرآن اليوم وتحفيظه مما يُحمد الله عليه وحده، ولا تزال المجتمعات الإسلامية اليوم تزف أعدادًا من حفاظ الوحي والفضل كلُّه لله، لكن ليس مجرد حفظه هو العمل به، إنما حفظه هو الخطوة الأولى للعمل به، فلا يكون العمل إلا بعد قراءة الآيات، والشيطان يعمل هنا كيده ومكره بإشعار المؤمن بالرِّضا عن حفظ القرآن، والانقطاع بذلك الحفظ عما بعده من فقه معاني الآيات، ثم قَصْر النفس على العمل به، وهو أشد ما يكون على الشيطان، إنَّ آيةً تقرأها وتفهم معناها ثم تجاهد نفسك على العمل بها تعدل مئات الآيات التي تحفظها، فحفظُ القرآن شيءٌ والعملُ به شيءٌ آخر، وينبغي ألا يُبْرِد شعورنا للعمل بالقرآن أداؤنا لحفظه.



إنَّ كونَ حياتنا محاطة بالقرآن، وقرب المصاحف في بيوتنا ومساجدنا، وبثه في المقاطع الصوتية والمرئية في جوالاتنا،



وتخصيص قنوات كاملة للقرآن أورثنا شـعورًا بأننا قريبون من القرآن وعاملون به.

إننا نشـكو من بعض الأمراض القلبية التي نشـعر بها، أو سلوكيات خاطئة هي نتيجة لتلك الأمراض، فبعضنا يُعظِّم غير الله تعظيمًا عاليًـا غاليًا، وهناك مَـن يعلِّق آمالـه بغيره، وفي صدورنا خوفٌ شـديد لكن من غيـر الله، أليـس البعض منا اسـتحوذ عليه الشَّـيطان، والبعض جرحه الشـيطان، ولا زال الجرح يحتاج لعلاج، ويشـكو البعض من الطمع الذي حَرَمه الطمأنينة والاسـتقرار، وبعضنـا لديه قلقٌ، وهناك مَن أفسـد الغضب حياته، ومِـن بيننا مَن يعرف من نفسـه البُعد عن الله بانفتاح باب الشـهوات لديه، وآخرون فيهم ضعف يقين زعزع إيمانهم، وهناك مَن يطلب الفخر والكِبر والاستعلاء، والحسد موجود أيضًـا، وأما الأمراض العقدية، فشـأنها أشـد خطرًا؛ كاختلال الولاء والبراء، ومحبة مَن لـم يأمر الله بحبِّه، وبغض من أمر الله بمحبتـه، واختلال ميزان الإعجـاب، وفوات قوله تعالى: ﴿وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢١]، ولا يزال مرض غياب فقه العبودية مرضًا فتـاكًا بيننا، والغفلة والإعراض عن دين الله لا يتعلَّمه ولا يعمل به، وغير ذلك من أمراضنا، ومع هذا نحن نقرأ القرآن، فقارن بين نسبة الأشخاص





الذين قالوا: كان عندنا المرض الفلاني ثم بعدما قرأت السورة الفلانية وعرفت تفسيرها وجدت علاجي مذكورًا فيها، فعالجت نفسي وزال بحمد الله، قارن بين هذا وبين الذين يقرءون الآيات والسُّور وحالهم لم يتغيَّر، هل يعقل أن القرآن لم يغيِّر فينا شيئًا من أمراضنا؟!

الجهل بالله وأسمائه وصفاته من أشد الأمراض وعلاجه في كلِّ آية من كتاب الله، فهل نلاحظ تغيُّرًا في معرفتنا بالله؟ هل يستجد عندنا ـ كل مدة زمنية ـ معرفة اسم لربنا ثم ننشغل بطريقة التَعبُّد به؟ ثم نعرف صفة لله وننشغل بالتعبد بها؟ ثم يحملنا ذلك على الشَّوق لمعرفةٍ أكثرَ لأسماء سيدنا وولي أمرنا ﷻ.



سورة الكهف التي نواظب على قراءتها بحمد الله كل جمعة كم تعالج قضايا سلوكية وأمراض مستعصية في قلوبنا وحياتنا؟! هل مرَّ بنا مَن قال بأنه تغيَّر وتشافى بسبب سورة الكهف؟!

في سورة الكهف ذَكَرَ الله ﷻ العديد من صفاته الجليلة مثل صفة: الضرب والربط والإغفال والتصريف والإرسال والتعجيل والإهلاك، وكل صفة هي سبب لزيادة الإيمان وعلاج لنواقضه ومنقصاته. إنَّ ضابط التأثر بسورة الكهف هو



زيادة الإيمـــان وتغيُّر الحال وزوال أمـــراض القلوب وحضور الدار الآخرة، وهو أثرٌ من آثار شـــهادة أن لا إلـــه إلا الله وأن محمدًا عبده ورســـوله، ولو تفرغت أســـرةٌ لفقه هذه الســـورة ومراجعة أمرها وشأنها كل أسبوع، لاســـتغنت بها عن غيرها، ولكان في هذه السُّورة شغلاً، ولقالوا كما قال الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو لم ينزل الله من القرآن إلا سورة العصر لكفتهم».

فليس الشأن في حفظها وغيرها من السُّور الحفظ المجرد عن العمل، إنما الشـــأن في العمل بها، ومجاهدة النفس على ذلك، والاستغفار عما فات من النقص، وقد كان السَّلف يبقون مدة في حفظ الســـورة، فقد ذكر الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه بلغه أن ابن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلَّمها[1]، وثبت عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بإســـناد صحيح أنه مكث أربع ســـنين في تعلُّم سورة البقرة[2]، فلماذا يا تُرى هذه المدة الطويلة؟! مع أننا نجزم أنه قادر على تعلُّمها وحفظها بأقل من ذلك بكثير.



إنَّ معرفة منهجية حفظ الصحابة يجيب على هذا السؤال، **ومنهجيتهم فـــي الحفظ**: هي أنهم كانوا إذا تعلَّموا العشـــر من

---

(١) الموطأ، (٤٧٩).

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، (٤/ ١٦٤).



القرآن لم يتعلَّموا العشـــر التـــي بعدها حتـــى يتعلَّموا حلالها وحرامها وأمرها ونهيها»[1]، فالحفظ ـ إذن ـ كان مشروع صناعة عالمٍ عاملٌ، فالعمـــل مقدمٌ عندهم على الحفـــظ، ولهذا مات العديد من الصَّحابة رضي الله عنهم ولـــم يُتموا حفظ القرآن كاملاً، لكنهم جميعًا ماتوا وقد عملوا بالقرآن كلِّه، وإذا وُجد من الصَّحابة رضي الله عنهم من جمع بين حفظ القرآن كاملاً وبين العمل به أصبح في أعين الصحابة رضي الله عنهم من الأجلاء.

وابـــن عمـــر رضي الله عنهما يقـــول: «كان الفاضـــل مـــن أصحـــاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السُّورة أو نحوها، ورزقوا العمـــل بالقرآن وإنَّ آخر هـــذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصَّبي والأعمى ولا يرزقون العمل به»[2]، وصدق رضي الله عنه بأن العمل بالقرآن رزق؛ حيث قال: «ورُزِقوا العمل بالقرآن».

ونتيجة لهذه المنهجية نجد أنهم يختلفون في مدة ختمهم القـــرآن، فالذي يختم في أســـبوع مع هذه الطريقة يســـمُّونهم الأقويـــاء كمـــا قـــال مكحـــول رحمه الله: «كان أقويـــاء أصحاب رســـول الله ﷺ يقرءون القرآن في ســـبع، وبعضهم في شهر،

---

(١) تفسير الطبري، (١/ ٧٤)، وفضائل القرآن للمستغفري، (٣٦١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، (١/ ٤٠).



وبعضهم في شــهرين، وبعضهم في أكثر من ذلك»[1]. وقراءة القــرآن بطريقة الصَّحابــة ﷺ التي تجمع بيــن العلم والعمل والتدبُّــر والتفكُّر، ومع هذا ختمُ القرآن في أســبوع دليلٌ على التفرُّغ للقرآن، وعلى قراءتهم له على كلِّ أحوالهم.

والنســاء الصَّحابيــات كان لهن نصيبٌ من هــذا المنهج العجيب في قراءة القرآن وحفظه، فعَن عبد الوَهَّاب بن عَبَّادِ بن حمزة، عن أَبيه، عن جَــدِّهِ ﷺ قال: «بَعَثَتْنِي أســماءُ ﷺ إلى السُّــوقِ، وَافتتحتْ سُــورَةَ الطُّورِ فَانتهتْ إلى قوله: ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، فذهبتُ إلى السُّوقِ ورجعتُ وَهِيَ تُكَرِّرُ: ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾»[2].



وفي قصة نادرة يحدِّثنا بها جارُ ابن عبَّاس ﷺ ويصف لنا طريقة قراءة ابن عباس ﷺ للقرآن، يقول صالح مولى التَّوأمة: «كُنْتُ جَارًا لابنِ عبَّــاس ﷺ، وكان يتهجَّدُ مــن الليل، فيقرأ الآية، ثم يســكت قَدْرَ ما حدَّثُتك وذاك طويلٌ، ثم يقرأ، قلت: لأيِّ شيءٍ ذاك؟ قال: مِن أجل التَّأويل يفكِّر فيه»[3]، وكان يفعل

(١) الإتقان في علوم القرآن، (١/ ٢٧٨).

(٢) مختصر قيام الليل، ص(١٤٨).

(٣) المصدر السابق نفسه.



ذلك وهو في صلاة التهجُّد، فكيف يكون سكوته وتفكره في التأويل خارج صلاته، فالعبرة عنده بالمعاني والحكم التي تدفع القلب للعمل.

واستمر هذا المنهج عند التابعين كما قال محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه: «لأن أقرأ في ليلتي حتى أصبح: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [الزلزلة: ١]، ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١] لا أزيد عليهما وأتردد فيهما وأتفكَّر أحبُّ إليَّ من أن أهذ القرآن هذًّا أو قال: أنثره نثرًا»[١]. ليس هذا على سبيل المبالغة بل يقولها ويتخذها منهجًا.



ويجب أن نعلم أن قراءة القرآن بفهم معانيه إنما تكون لأجل العمل به، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يغرركم مَن قرأ القرآن، إنما هو كلام نتكلَّم به، ولكن انظروا مَن يعمل به»[٢]، وحملة القرآن ـ في عهد الصَّحابة ـ هُمْ: العالمون بأحكامه وحلاله وحرامه والعاملون به[٣]، ولهذا اشتد نكير الصَّحابة رضي الله عنهم على مَن يَهُذُّ القرآن هَذًّا، ومَن يطلب آخر السُّورة.

---

(١) النشر في القراءات العشر، (١/ ٢٣٥).

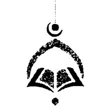
(٢) اقتضاء العلم العمل للبغدادي، ص(٧١).

(٣) التذكار في فضل الأذكار، ص(١٩٦).



وهناك لطيفة في معنى التــلاوة: فالتلو أصل واحد في لُغة العرب بمعنى: الإتباع[1]، وإطلاقها على قراءة القرآن إشارة إلى أن القارئ الذي يتلو كتاب الله: هو الذي يقرؤه ويعمل بما فيه فيكـــون تابعًا لـــه، ومنه قولـــه تعالـــى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقــرة: ١٢١] أي: يقرءونـــه ويعملون بما فيـــه، فيكونون أتباعًا للقرآن، والقرآن لهم بمنزلة إمام يقتدون به[2].

فنلاحظ أن قارئ القرآن سُمِّي تاليًا؛ ليس لمجرد القراءة إنما للفهم وللتطبيق، فحتى المســـمى لا يوجد فيه قراءة بدون فهم، وليس القصد إهمال حفظ القرآن والتزهيد فيه إلا أن المطلوب وضعه في مكان الصحيح، وحجمه الطبيعي، فلا يمكن للحفظ أن يتقدَّم على العمل، ووسيلة العمل هي الفهم والفقه.



ثم لا يفوتنا أن نبيِّن أن قراءة القـــرآن عبادة من العبادات، والعبادات لهـــا ظاهر ولها باطن، والباطـــن هو جوهرها، وهو المقصود، فالصـــلاة مثلاً إذا اعتُني بخشـــوعها وأعمال القلب فيها، وعُمل فيها على طريقة السُّنة النبوية نفعت عند الله، أما إنْ كانت مظهرًا خارجيًّا فقط، تؤدى من خلاله حركات الجوارح

(١) معجم مقاييس اللُّغة، (١/ ٣٢١).

(٢) جمال القُراء، (١/ ٣١٣).



والقلب غافل لاهٍ، فليست بصلاة نافعة، وكذلك قراءة القرآن إنْ خلت عن روحها وهو فهم المعنى ومعرفة التفسير.

ولنعلم أن مرض أهل الكتاب أنهم تركــوا كتاب الله وراء ظهورهم، فهل المعنى أنهم جلســوا أمامــه وكان القرآن خلف ظهورهم؟ ليس المعنى كذلك، بل المعنى ما ذكره الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧] قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما إنه كان بين أيديهم ولكن نبــذوا العمل به»[١]؛ فهل نسير على خُطى أهل الكتاب في التعامل مع القرآن؟!



وما دام أننا خلصنا إلى أن العمل بالقرآن هو المقصود؛ فإنَّ تعليم القرآن ليس هو تحفيظــه فقط ـ وهو من أجلِّ الأعمال ـ إنما تحفيــظ حروفه وبيــان معانيه، ليــزداد المؤمــن إيمانًا، فقوله ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَــنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»[٢] يشــمل تعليم المعاني وبيان أحكامه وحلاله وحرامه، فيشمل اللَّفظ والمعنى، كما أن صيغة (علَّم) المشددة تدلُّ على وجود مشقة وجهد في بذل ذلك، كما أن الحديث يشير إلى أن تَعْلِيمَكَ القرآن يكون على قَدْرِ تَعَلُّمِكَ مِنهُ.

---

(١) تفسير الطبري، (٦/ ٢٩٩).

(٢) صحيح البخاري، (٥٠٢٧).



القسم السادس
عتبات الشَّوق للقرآن

أول عتبات الشَّوق للقرآن تعظيم اللّه:

وحتى نحسن تصور الشَّوق للقرآن؛ فلا بأس بضرب مثال واقعي من حياتنا ـ كثيرًا ما تكون حياتنا عِبرة لنا ومن حجج الله علينا ـ لو أن ورقة فيها كلام وقعت في يدك وقرأتها قراءة سريعة، فلم تجد ما يجعلك تتأنى فيها ثم تركتها، فأخبرك صاحبك أن هذا كلام رجل عجيب جمع ما لم يجتمع عند غيره، فجمع القيادة والريادة والفكر والبيان، وله تاريخ حافل، وبدأتَ تذكر له بعض قصص هذا الرجل، فما الذي سيحدث؟! ستمتد يدك مرة أخرى للورقة وستقرأها هذه المرة بقراءة متأنية، قراءة من يبحث عن الصفات التي سمعها ليتحقق منها، والعجيب أن جملاً قرأتها قبل بضع دقائق لم تشد انتباهك، وإذا بك تقرأها هذه المرة وترفع صوتك، وتبتسم طربًا لها، ما الذي حدث لك؟ إنَّ تعظيمك لهذا الكاتب بعدما أخبرك صاحبك عنه هو الذي جعلك تقرأ نصوصه بقراءة أخرى، فكذلك الحال مع القرآن.



لا يمكن للقلوب أن تشتاق للقرآن وهي لم تعظِّم الله، ولم تعرف قدره، فإذا عرفت القلوب الله معرفة إجمالية قرأت القرآن قراءة إجمالية، وإذا عرفت القلوب ربها بأسـمائه وصفاته زاد إقبالها على كلام مولاها الذي عرفـت صفاته، فإذا زاد تعظيم القلـوب لله والتعلُّـق به فرحـت بالقـرآن كما قـال تعالى: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعـد: ٣٦]، وأيضًـا يفرحـون بما يقرءون، فالقرآن مصدر فرح لتلك القلوب.

واسمع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وهو يُعلِّم الطلاب القرآن ماذا يقول لهم؟ يقول: خُذها، فوالله لهي خيرٌ مما على الأرض من شيء[1]، كأني أحس بشعوره وهو يحاول أن يوصل الطالب إلى تعظيم القرآن وتعظيم المتكلم به.

فمَن أراد أن يشتاق للقرآن فليتزود من معرفته بالله وأسمائه وصفاته، والقرآن أحد مصادر هذه المعرفة، فاقرأ القرآن وأنت تبحث عن صفات سـيدك ومعبودك ومحبوبك، وكلُّ صفة أو اسـم تتعلَّمه ضعه في قلبك فـي مكانه اللائق بـه، فانظر إلى مرضٍ من أمراض قلبك وعالجه على ضوء هذا الاسم والصفة الربانيـة، وكل عمل من أعمال قلبك زده نـورًا من خلال هذا

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(٥٢).



الاسـم والصفة، فتعرف حينئذٍ قدر سيدك ولن توفيه قدره كما قال هو ﷻ عن الناس: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١].

لا تتوقع ـ أيُّها القارئ الكريـم ـ أن تتعلق بقراءة القرآن، وتفهم معناه وأنت لا تعرف شيئًا كثيرًا عن الله، ومن الخلل أن البعض لو أراد أن يعدِّد محبوبات الله ومبغوضاته وسُننه لما ذكر إلا القليل مع أنها مبثوثة في القرآن، ويقرُأها مع كلِّ صفحة.

إنَّ من الألـم أننا ندعي معرفتنا لأسـماء الله وصفاته، مع غفلتنا عن كثير منها أثناء توسلنا إليه ﷻ في الدُّعاء، فاسم الله الحسـيب مثلاً كم مرة تضرعنا لله به؟! وكذلك اسمه المقيت والصمد والستير وغيرها؟!



ولو قلت: إنَّ عددًا من الصِّفات لـم تطرأ على بالنا مع أننا كنا أحوج ما نكون إليها مثل صفة الإفساح والتي ذكرها الله بقوله تعالى: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١١]، فكم مرة كنا بحاجة إلى هذه الصفة تحديدًا، فلم نتعبد لله بهـا ولم نتضرع إليه بها، ولم ندعُ الله بها وهي صفته؟! مع أننا كنا في ظرف نحتاج أن يفسح الله لنا، ولا يملك الفسـح لنا إلا الله، ومثلها صفة السـرعة لله والتي لا يخلو يوم من حاجتنا لها، فقد قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٢]، وكثيرًا ما يطرأ على أذهاننا اختصاص هذه



الصفة بالعقاب مع أنها صفة عامة تأتي للعقوبة وللمثوبة، وتعني: أن أفعاله تســرع فلا يبطئ منها شيء عما أراد؛ لأنه بغير مباشرة ولا علاج ولا كلفة، ولا تعسر عليه سبحانه حاجة»[1].

وكذلك صفة التأليف، كم مرة احتجناها لتستقر قلوبنا عما أشغلها مما يحتاج لتأليف كما قال تعالى عن صفته: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فلــو كانت قراءتنا للقرآن قراءة واعية متأنيــة، قراءة علم وعمل هــل تتوقعون أننا ســنغفل عن هذه الصفة من صفات ربنا، ونحن نعالــج يوميًّا أمورًا كثيرة تحتاج هذه الصفة الربانية العظيمة؟! في أسرتنا نحتاج تأليف الله، ومع طلابنا نحتاج تأليف الله، ومع زملائنــا نحتاج تأليف الله، ومع مَن هو أعلى منها نحتاج التأليف أيضًا، ومع عباداتنا نحتاج أن يؤلف الله بيننا وبينها، وعلاقتنا مع القرآن تحتاج تأليف، فكان من الضروري أن ندعو الله بصفة التأليف.

وعسى الله أن يغفر لنا جهلنا بصفة الطَّوْل لله والتي قال الله فيها عن نفسه: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]، لا يسعنا إلا أن نستغفر الله عن كلِّ لحظة قضيناها ونحن نجهل اسمًا وصفةً لله ذكرها الله لنا في كتابه وسنة رسوله ﷺ.

(١) الوجيز في ذكر صفات ربنا القوي العزيز، ص(١٩٠).



أرأيتم لماذا نقرأ القرآن ولم يحدث لنا قشعريرة الجلد؟! إننا بحاجة إلى أن تقرأ قلوبنا القرآن وليس أعيننا فقط، إنَّ للقلوب ألسنة فلتقرأ ألسنة القلوب القرآن مع لسان الفم، وإنَّ عين القلب هي التي تحرِّك العين الباصرة لتقرأ القرآن على مهل، وإنَّ لسان القلب هو الذي يدفع ألسنتنا لقراءة القرآن، بل إنَّ لذة الروح هي التي تجعل النفس تُقبل على قراءة القرآن، وهذا كلُّه لا يكون إلا بقراءة الفهم والتأني والمدارسة لآيات القرآن، فلا تقرأ القرآن لإرضاء نداء النفس الداخلي لتتخلص من ألم تأنيب الضمير، بل اقرأ القرآن قراءة مؤمن محب لربه يشتاق لكلامه، ويحمله الشَّوق لكلام ربه إلى الشوق للرؤية والنظر في الآخرة، فيتولد له شعور الشَّوق إلى لقاء الله كما قال النبي ﷺ: **«وَأَسأَلُكَ الشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ»**(١).



إنَّ الشَّوق لا يكون إلا لمن عرفته وخبرته وأحببته واطمأننت إليه، إنَّ القرآن يوصل إلى هذا الأمر؛ لأنه يُعرِّفك بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعلى قدر معرفة الله تكون الخشية منه، وعلى قدر الخشية تكون المراقبة، كما في

(١) أخرجه النسائي في (السنن)، (٣/ ٥٤)، والحاكم في (المستدرك)، (١/ ٧٠٥)، وأحمد، (٤/ ٢٦٤)، وقال الهيثمي في (المجمع) (١٠/ ٢٨٠): «رجال ثقات».



الحديث: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْـيَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعْصِيَتِكَ**»[1].

فإنْ قلتَ: عرفت أهمية تعظيم الله لتكـون قراءتي للقرآن نافعة؛ فكيف الوصول إلى تعظيم الله؟ وما الطَّريق لذلك؟ وهذا ما أذكره لك الآن.

۞ تحقيق الإيمان قبل قراءة القرآن:

ليس بين الإيمان والقرآن تعارضٌ حتى يُشَـغِّب الشيطان عليك قبل أن تعيَ كلامـي، إنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم ذكروا لنا شـيئًا عجيبًا عن بداية حياتهم، فإذا عرفناه وطبَّقناه نكون سـرنا على ما بدءوا بـه لنصل لبعض ما وصولوا إليـه، روى جُنْدُبُ رضي الله عنه قوله: «كُنَّا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ غِلْمَانًـا حَزَاوِرَةً، تَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُـمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَـا بِهِ إِيمَانًا»[2]، فنلاحظ أنهم تعلَّموا الإيمان قبل القرآن؟ فكيف تعلَّموا الإيمان



---

(١) العودة إلى القرآن، ص(١٨).

(٢) ذكره البخاري في صحيحه تعليقًا في الإيمان (١/١٠٣)، ووصله ابن أبي شـيبة في (المصنف)، (١١/٤٨)، وقال الألباني في التعليق على كتاب الإيمان لابن تيمية ص(٢١٢): «وقد وصله ابن أبي شيبة بسند صحيح عن عمار موقوفًا، وقد روي مرفوعًا وله شواهد كما قال الحافظ في (الفتح) (١/١٠٤)».



يا تُرى؟! وهل الإيمان يُتَعلَّم؟! وهــل هناك مناهجُ أتدرَّج فيها لأتعلَّم الإيمان كما أتعلَّم فنًّا من الفنون؟!

إنَّ تعظيم الله لا يكون إلا من خلال الإيمان به، ثم تحقيق الإيمان به، فليــس الإيمان مجــرد الإقــرار بربوبيته ﷻ، إنَّ التصديق بالله يعني التصديق بوجوده وأسمائه وصفاته وشرعه ودينه، والتصديق بوعده الذي وعــد، والتصديق بوعيده الذي أوعد، إنَّ كلمة جندب رضي الله عنه هي مثل كلمة النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِــاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِــرِ..»[1]، ومثل قولــه عليه السلام: «مَنْ صَامَ رَمَضَــانَ إِيمَانًا»[2]؛ فهل هنــاك مَن يصوم رمضــان وهو غير مؤمن؟! هذا السُّؤال يدلك على الفرق بين فهمنا للإيمان وفهم الصَّحابة رضي الله عنهم والجيل الفاضــل؛ لأن المــراد أن الدَّافع الذي جعلهم يصومون هــو تصديقهم بإلهٍ عرفوا أســماءه وصفاته، وعرفوا وعده وثوابه الذي أعطاه لمن أطاعه، ووعيده وترهيبه لمن خالف أمره، فنتيجة لهذا التصديق الذي لا يخالطه شــك أمسك عما تشتهيه نفسه من المفطرات، حبًّا لذلك الإله والرب الآمر، وطمعًا في ثوابه ورضاه، وخوفًا ووجلاً من عقابه، وهذا



---

(١) متفقٌ عليه: أخرجه البخاري، (٦٤٧٥)، ومسلم، (٧٤).

(٢) متفقٌ عليه: أخرجه البخاري، (٣٥)، ومسلم، (٧٦٠).



لا يكون إلا باســتحضار الله في القلب، واســتحضار اطلاعه وسمعه وعلمه بك ـ أيُّها العبد، فيحاول الشيطان أن تغفل عن هذا الاستحضار والمشاهدة القلبية، وهكذا تكون المعركة بين المؤمن وعدوه، فعدو الله يمس المؤمن بطائف، والمؤمن يتذكر ويتبصر كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٢].

إنَّ القرآن يحتاج إلى إيمان قبله، إيمانٌ بأن هذا كلام الإله الذي صدَّقتُ بوجوده، وصدَّقتُ بأسمائه وصفاته، وأوقنُ بأنه يتكلَّم أحلى كلام وأجمله، وأن كلامه أنزل هداية ونورًا، وأوقنُ بأني عبدٌ له مطيع مستسلم منقاد، ولا غني لي عنه طرفة عين، فاعتمادي وخوفي ورجائي وحبي كله له هو؛ لأنه المستحق له، فعلى قدر حضور العبودية في القلب يدخل الإيمان والتصديق بالله في القلب، وليس المراد بالتصديق الإقرار بوجود الله، وإنْ كان هذا هو أول التصديق، إنما المعنى أن هذا التصديق يقوده إلى التصديق بما وراء ذلك، من الإقرار بالتعبد له، والطاعة له وحده، والاستسلام لدينه وشرعه، فالحلال ما أحله الله الذي أنا مُصَدِق به، والحرام والممنوع ما مَنَع منه، وهكذا يزداد الإيمان شــيئًا فشــيئًا حتى يخالط نوره القلوب، فتنقاد الجوارح لذلك التصديق وتنبعث الإرادة، فيلهج اللسان بالذكر، وتنقاد الجوارح





للصلاة التي هي دخول على الملك، ويصبح اسم الله محبوبًا عنده حتى إذا سمع المؤذن ترك كلَّ أشغاله وأخذ يردد معه، وعلاه من المهابة والخشوع لهذا الإله الأكبر، الذي ينادي على الفلاح والصلاة، فإذا سكت المؤذن فلا تظننَّ أنه غفل بل تذكره بالله كلمة (**بِاسْمِ اللهِ**) أول الأكل والشُّرب والدُّخول، وتذكره بالله كلمة (الحمد لله)، وتذكره بالله كلمة (**تَوَكَّلْنا عَلى اللهِ**)، وتذكره بالله كلمة (**بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ وَضَعْتُ جَنْبِي**)، وتذكره بالله كلمة: (**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَما أماتَنا**)، ولا يزال يتذكر الله في كلِّ أحيانه، فيتولد عنده حُبٌّ يكبر ويعظم مع كل لحظة هو يذكر الله فيها ويستحضره.



وآثار ذلك ظاهرة عند المؤمن في توحيده لله كل أفعاله، فلا يريد إلا وجه الله، ولا يطلب إلا ابتغاء رضوان الله، ويتبرأ من حوله وقوته؛ لأنه عبد ضعيف لا حول له إلا بإعانة الله له، فلا يزال يطلب العون من ربه، ويغلق منافذ الشيطان وشِركِه على نفسه، فإذا حقَّق هذه العبودية فليقرأ القرآن حينئذٍ سَيَجد ولا بدَّ أنه قد هُيِّئ له الموضع، فنزل نور القرآن على نور القلب، واجتمع نور الإيمان مع نور الفطرة، والله يهدي لنوره مَن يشاء.



إنَّ الصحابة رضي الله عنهم الذين أخبرنا عندهم جندب رضي الله عنه لما حقَّقوا الإيمان بالله قرأوا بعد ذلك القرآن، فوجدوا أن الله عرَّفهم بنفسه وأسمائه وصفاته وأفعاله وما يحبه وما يبغضه، وذكر لهم أممًا قبلهم، وحوادث بعدهم، فيقرءون ذلك قراءة مَن عَرَف مقصود إلهه، وعَرَف قَدْرَ نفسه هو، فيقرأ قراءة العبد المرتبط بسيده دون غيره، والمتلهف لكلام سيده المتعطش له، والناس في هذا أربع طبقات كما ذكرها ابن القيم رحمه الله: «أهلُ القرآن والإِيمان، وهُمْ أفضل الناس، والثانية: مَن عَدِم القرآن والإِيمان، والثالثة: مَن أُوتي قرآنًا ولم يُؤت إيمانًا، والرابعة: مَن أوتي إيمانًا ولم يُؤتَ قرآنًا»[1].



أردتُ أن أُبيِّن أننا بحاجة إلى برامج إيمانية تصاحب قراءتنا للقرآن لكي نتعلَّم الإيمان والعلم والقرآن، وإنَّ أولى البرامج هو فقه القرآن ومعرفة معانيه، فلا يوجد شيءٌ يعلِّمنا الإيمان مثل القرآن، وسأضرب لذلك مثالاً:

عند قراءة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] نتعلَّم أمورًا:

١ ـ ندرك أن القرآن الكريم ليس فيه شكٌّ ولا خللٌ ولا نقصٌ بوجه من الوجوه، فنزداد تعظيمًا لله المتكلم به،

---

(١) زاد المعاد، (١/ ٣٣٨).



ونحمده على هذا القــرآن الكامل، ونقصر قلوبنــا على حبِّه إذْ اختصنا بإنزال هذا الكتاب على هذا المستوى العالي، كما ندرك علو منزلة القرآن عند الله، ولهذا أشــار له باســم الإشارة الدال على بعد المنزلة ورفعتها (ذلك)، والله يحمد نفســه على تنزيل القرآن كما قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١].

٢ ـ ثم نلتفت إلى أعمالنا لنصحِّحها على ضوء هذه الآية، فما كان من تكاسل في قراءة القرآن مثلاً، أو ذِكر لله، أو عبادة أو طاعة؛ فنقوِّمها بهذه الآية التي يســتحثنا الله فيها على قراءة كتابه، ولهذا مدح كتابه وأثنى عليــه لكي نَعَيَ ما يريده منا، ثم نتطلق للقــرآن لنأخذ منه ما يريده الله منــا؛ لأنه كتابٌ لا ريب فيه، ونستســلم لأحكامه؛ لأنه لا ريب فيه، وننقاد لما طلبه الله منا ولمــا نهانا الله عنه في هذا القــرآن؛ لأنه لا ريب فيه. ومن الأعمال التي تنتجها الآية الكريمة الإقبال على كلام الله تعلُّمًا وتعليمًا؛ لأنه كتاب لا ريب فيه، فلن ينقضي وقتك بظنون العلم التي قد تُنقَضُ في جيل من الأجيال.



٣ ـ ثم نعالج أمراض قلوبنا على ضوء هذه الآية، فمرض الشَّك والنفاق والاضطراب والريبة تُزال عند فقه هذه الآية، فما الذي يجعلك تشك وأنت ترى في الكون كله مصداق ما أخبر الله عنه في هذا الكتاب الذي لا ريب فيه، حتى في أخبار تلك



الأمم الغابرة نرى ما يشهد لها في واقعنا المعاصر، ونرى صدق أسـماء الله وصفاته في الحياة، فآثار اسـم الله الرحيم شاهدة نؤمن بها ونحن نرى أكثر أهل الأرض على غير دين الله، ومع هذا دارةٌ عليهم أرزاقهم، محفوظة لهم أجسامهم، يجازيهم الله بحسناتهم حسنات في الدُّنيا، أليست هذه آثار رحمة الله؟! ومن الأمراض التي تعالجها الآية الكريمة مرض الإعراض عن كلام الله، فكيف تعرض وهو كتاب لا ريب فيه؟!

٤ ـ وفي الآية توجيه للمؤمن لأن يطلب الهداية من خلال القرآن؛ لأنه لا ريب فيه، وأطلق الهداية هنا لتشـمل كلَّ أنواع الهداية التـي يحبها الله ﷻ، وأعلاها هداياتـك للإيمان بالله، فالهداية تكون من خلال القـرآن، هذا منصوص الآية، وما دام أن القـرآن هـدى؛ فمعنـى ذلك أن آياتـه فيها أصـول تلك الهدايات، فكلُّ ما يحتاجه المؤمن ليعرف مراد الله فيه، فسيجده في القرآن لأنه هدى، وهذا كلُّه يقود المؤمن القارئ للآية إلى طلب الهداية وحاجته لها أكثر من طلبه الطعام والشراب.



٥ ـ وفي ذكر المتقين في هذه الآية دلالة على الارتباط بين التقوى والقرآن، وأن الكتاب العزيز سببها، وأن المتقي متعلق بالكتاب العزيز مرتبط به، فالقرآن أورثه التقوى، والتقوى زادته هداية للقرآن، فيتعلَّم المؤمن منزلة التقوى ويعرض حاله عليها،



ويثير أسئلة على نفسه: هل وصل لهذه الدرجة؟ كم بقي دونها؟ وما العوائق التي تعيق عن الوصول لها؟ ما شـــروط تحقيقها؟ وغير ذلك من الأســئلة التي لو أفنى عمره فيها وفي تحصيل أجوبتها علمًا وعملاً لما كان عُمُرُه خسارةً.

٦ ـ ثم يبحث القارئ للآية عن أسماء الله وصفاته المتعلقة بهذه الآية، فيجد أنها تتضمن الأسماء التالية:

• **اسم الله الحكيم**: الذي أحكم كتابه وكلامه وشرعه ودينه وأفعاله، فلن تجد فيها من فطور.



• **اسم الله العليم**: الذي وسع علمه كلَّ شيء، وأنزل كتابه على علم سبحانه، وأودع فيه العلم به وبأسمائه وصفاته.

• **اســـم الله الهادي**: الذي يهدي مَن يطلـــب الهداية، ويُقرُّ ويعترف بكونه ضالاً إنْ لم يهده الله.

٧ ـ ثم يبحث في أعمال القلوب من خلال الآية الكريمة، فيجد الأعمال التالية:

• **المحبة**: التـــي تجعل القلب يتجه لمحبـــة مَن أنزل عليه كلامه هداية له، ولم يتركه هملاً.

• **الهداية**: والتي تعني الدلالة، فالقلب يطلب هدايته، وهو ضال إنْ لم يهده الله.



• **التقوى**: وهي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية.

• وغير ذلك من أعمـــال القلوب، حتى يصبح عندك قناعة أن هذه الآية تليق أن تكون أول آية في القرآن، وكأن الله يباهي بكلامه ﷻ، فيجاهد العبد نفسه على العمل والاجتهاد والصَّبر والمصابرة.

اختلاف مشاعر القلب مقصود للقرآن:

في سورة واحدة من القرآن تجد أنوعًا من تسليط المشاعر على القلب، فتجد في السُّــورة تخويفًا من يوم الحســـاب، ثم آيات فيها تشـــويق للجنة، وآيات فيها اســـتثارة لمحبة الله في القلب، وآيات أخـــرى فيها خضوع وفقر العبـــد، وآيات يكاد القلب يطير من الفرح بها، وآيات في أسماء الجلال لله، وبعدها بآيات أســـماء الهيبة والســـلطان لله، ثم آيات فيها صفات الله، وهكذا تتنوع الآيات ذات الأثر.



هذه الآيـــات وغيرها تفعل في القلـــب فعلها؛ حيث تتنوع المثيرات على القلب حين قراءتها، ومـــع دوام القراءة تتحول إلى أحوال القلب يعيشـــها القلب، ثم تتمكـــن منه حتى تكون مقامات ثابتة للقلب، وهذا يكون بكثرة القراءة والتدبُّر والتفكُّر عند ذلـــك تتحول تلـــك المشـــاعر إلـــى إرادات وأعمال في



الجوارح؛ فشعور الفقر والخضوع الذي أحس به حين قراءة آيات عظمة الله أورثه ـ مع المداومة على القراءة ـ استعانةً بالله وتعليق الآمال به، وطلب العون منه وحده.

وفي هذه الحالة ليس أمام الشيطان إلا التعاون مع النفس ليقنعها أن تستوفي شهواتها، فتتثاقل عن الطاعة وتتكاسل عنها، فتبدأ معركة بين الشيطان ومعه النفس أمام القلب ومعه الإرادة، والإرادة هي التي تحرِّك الجوارح، فعلى قوة الإرادة يكون انبعاث الجوارح، فتكون الغلبة للأقوى منهما.



وهذا يستدعي أن يكثر المؤمن من قراءة القرآن، ويكون ذلك بالتفرغ للقرآن، وإعطائه المساحة الكبرى من اليوم، وقد أمر النبي ﷺ بقراءة القرآن وجعل لذلك شرطًا في قوله: «**اقْرَأُوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ، فَقُومُوا عَنْهُ**»(1).

واختلف العلماء في معنى الحديث، ومن الأقوال التي ذكرت ما يلي: داوموا على قراءته ما دامت قلوبكم تألف القراءة، فإذا اختلفتم بأن صارت قلوبكم في فكرة شيءٍ سوى قراءتكم وصارت القراءة باللسان مع غيبة الجنان، يعني صار القلب مخالفًا للسان، فقوموا عنه واتركوا قراءته حتى ترجع قلوبكم(2).

---

(1) متفقٌ عليه: البخاري، (٤٧٧٤)، ومسلم، (٦٩٤٩).

(2) مرقاة المفاتيح، (٧/ ٢٦٤).

للحديث معانٍ أخرى تدلُّ على أن الشيطان يعرض بعض الشبهات لقارئ القرآن، ويضرب بعض الآيات ببعض ليُلبِّس على قلب القارئ، فإذا أحس القارئ من ذلك بشيءٍ؛ فليعالج قلبه بأن يفوت الفرصة على الشيطان ويقطع القراءة؛ لئلا يستمر الشيطان في إلقاء الشبهات.

وكلُّ المعاني التي قيلت في الحديث تأمر بالإقبال على قراءة القرآن، وعمران الوقت به، والتحذير من القراءة التي لا يفهم القارئ معناها، أو لا يتفاعل معها، حتى أنه إذا مرَّ بآية رحمة لم يسأل الله الرحمة، وإنْ مرَّ بآية عذاب لم يستجر بالله من عذابه.



تَغَنُّوا بالقُرآنِ وتَقَنَّوه:

جاءت الوصية في الأثر المرسل بالتغني بالقرآن، فقد جاء في الأثر عن المُهَاصِرِ الزبيري رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ، لَا تَوَسَّدُوا الْقُرْآنَ، وَاتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَغَنُّوهُ وتَقَنَّوه، وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»**[1].

(١) فضائل القرآن لابن كثير، ص(١٨٥)، وقال ابن كثير: «مرسل».



وقد أوضح أبو عبيـد معنى (تغنوه) فقـال: «أي: اجعلوه غناءكم من الفقر، ولا تعدوا الإقلال معه فقرًا، ومعنى (وتقنوه) أي: اقتنوه كما تقتنوا الأموال، واجعلوه مالكم»[1].

وفي هذا لفتةٌ تربويةٌ بأن صاحب القرآن المُعلِّم له والمتعلم عليه ألا يَعد جلوسـه للقرآن وتعليمه إهمـالاً لطلب الرزق، فليسـت المقارنة مادية من كلِّ وجه، بحيث نعتبر أن الجلوس في المسـجد لتعليم القرآن، أو اختيار تخصص القرآن وعلومه في الجامعات ـ يُعد طريقًا من فـوات فرص العمل وتحصيل الرزق، فقد أوضح التابعي المهاصـر رضي الله عنه أن القرآن فيه الغنى ويصلح للاقتنـاء، وليس هذا بكثيـر على القـرآن، فالأرزاق مفاتيحهـا الطاعات وعلـى رأسـها كلام الله الـذي تفتح به المغاليق، ولا زالت حيـاة أهل القرآن زاخـرة بالقصص التي رُزِقـوا من خلال تعليمهـم القرآن، وقد جاء فـي حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «**أَحَقُّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللهِ**»[2].



وعثمان رضي الله عنه عُرف بقراءة القرآن من بين الصَّحابة رضي الله عنهم وقد فُتحت له الأرزاق والثروات والخلافة وغيرها، فعمل فيها بما أمره القرآن، فرضي الله عنه من إمام.

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(٦٩).

(٢) صحيح البخاري، (٥٧٣٧).



والقصد أن نصحِّح مفهــوم الغِنى، فمَن تعلَّــم القرآن أو علَّمه أو حفظه وعمل بما فيه، فهو الغني حقًّا، ومع هذا؛ فأهل القرآن أحق الناس بأن يبذل لهم ما يعينهم على أداء رسالتهم.

عددُ دَرَجِ الجنةِ:

مما يُرغِّب في قراءة القرآن وتحصيله حفظًا وقراءةً ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قولها: «**إِنَّ عَدَدَ دَرَجِ الْجَنَّةِ بِعَدَدِ آيِ الْقُرْآنِ، فَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ مِمَّنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلَيْسَ فَوْقَــهُ أَحَدٌ**»[1]، وفي رواية: «**فَمَنْ قَرَأَ ثُلُــثَ الْقُرْآنِ ثُمَّ دَخَــلَ الْجَنَّةَ كَانَ عَلَــى الثُّلُثِ مِنْ دَرَجِهَا، وَمَنْ قَرَأَ نِصْفَ الْقُرْآنِ كَانَ عَلَــى النِّصْفِ مِنْ درَجِها، وَمَنْ قَرَأَهُ كُلَّه كَانَ فِي عِلِّيِّين، لَمْ يَكُــنْ فَوْقَهُ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ**»[2].

وقد صحَّ مثل ذلك عن الضَّحاك رضي الله عنه قوله: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ: عَلِّمُوا أَوْلَادَكُمْ وَأَهَالِيَكُمُ الْقُــرْآنَ؛ فَإِنَّهُ مَنْ كَتَبَ اللهُ عز وجل لَهُ مِنْ مُسْــلِمٍ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا قِيلَ لَهُ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ**

---

(١) فضائل القرآن لأبــي عبيــد، ص(٩)، وأخلاق حملة القــرآن للآجري، ص(٤٨).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(٣٧)، وابن أبي شــيبة، (١٠/ ٤٦٧)، وفيه مِعْقَسُ بْنُ عِمْرَانَ.



حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى عِلْمِهِ مِنَ الْقُرْآنِ»[1]، وله شاهدٌ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وارْقَ ورَتِّل كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**»[2]، والحديث يحتمل أنه لحافظ القرآن العامل به، ويحتمل أنه للقارئ العامل بالقرآن والمتَّبع له[3]، وليس المقصود بالعمل بالقرآن ألا يخرم منه أيةً، بحيث إنه عامل بكلِّ لفظ في القرآن، فهذا مما يصعب والله المستعان، لكن حسب العبد أن الله يغفر الصغائر بالمكفرات كالصلوات والجمعة وغيرها إذا تقبَّلها الله، وإنما القصد هو مجاهدة النفس على العمل بأحكام القرآن مع الاستغفار عن النقص والذُّنوب.



حضور اليوم الآخر في القرآن كلِّه:

اليوم الآخر مذكور في القرآن كلِّه، من أوله إلى آخره، ولم يُذكر شيءٌ يساويه في كثرة الآيات الدالة عليه، وبالمقابل حذَّرنا

---

(١) سنن سعيد بن منصور، (١/ ٥٩)، وقال محققه: «صحيح عن الضحاك».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في (المسند)، (٢/ ١٩٢) واللفظ له، وأبو داود، (١٤٦٤)، والترمذي، (٣٠٨١) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن حبان في صحيحه، (٧٧٦)، وله طرق بمجموعها صحيح، انظر: تحقيق سنن سعيد بن منصور، (١/ ٦٣).

(٣) تحفة الأبرار، (١/ ٥٣٢).



من التعلُّق بالدُّنيا، وأعطانا معادلة فيها الميزان والعدل، فالقرآن يريد ألا نتعلــق بالدُّنيا مع أمره لنا باســتغلالها والتســابق في مرضاة الله، وهذا التوازن كبيرٌ إلا على الخاشــعين، فعلى قدر أعمالنا في الدُّنيا تكون درجاتنا في الآخرة، فمَن ذا الذي يفرط في الدُّنيا بعد ذلك؟!

اليوم الآخر سُــمِّي في القرآن بأســماء كثيرة، منها: اليوم الآخر، والآزفة، ويوم البعث، ويوم التغابن، ويوم التلاق، ويوم التناد، ويوم الجمع، ويوم الحســاب، والحاقة، ويوم الخلود، ويوم الخــروج، ويوم الدِّين، والسَّــاعة، والصَّاخــة، والطَّامة، والغاشــية، ويوم الفصل، ويوم الفتح، ويوم القيامة، والقارعة، والواقعة، ويوم الوعيــد[1].. يا تُرى على ماذا تــدلُّ كثرة هذه الأسماء؟! فما رأيكم بقراءة القرآن التي لا يلاحظ القارئ فيها الدار الآخرة؟! نسأل الله أن يعفو عنا.



مشــاهد الدَّار الآخرة في القرآن لها وقعٌ على القلب عظيم، ولو كانت قلوبنا سليمة لتوقفت عند قول الله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] أي: كان قدر ذلك اليوم الذي

(١) الحياة الآخرة ما بين البعث إلى دخول الجنة أو النار، (١/ ٤٥).



فُرغ فيه من القضاء بينهم قدر خمسين ألف سنة[1]، فمعنى ذلك أن الناس سيقفون في عرصات يوم القيامة خمسين ألف سنة!! لا أعلم لماذا وأنا أقرأ الآية كأن العدد ذُكر على سبيل المبالغة، أو أنه غير مقصود لذاته، وإلا فإنَّ هذا الرَّقم مذهل جدًّا، ولو آمنا بها حقيقة الإيمان لتحللنا من المظالم، وأقبلنا على طاعة الله، خمسين ألف سنة مَن يقدر على وقوفه إلا أن يخففه الله سبحانه وتعالى.

إنَّ الذي حذَّر القرآن منه هو التعلُّق والاغترار بها، وقد قال السَّلفُ: «حُبُّ الدُّنيا رأسُ كُلِّ خطيئةٍ»[2]، فقهوا ذلك من القرآن، والقرآن يقرِّر أن كلَّ ما في هذه الدُّنيا إنما هو ابتلاء واختبار وضعه الله سبحانه وتعالى لعباده ليتوصلوا به إلى رضا ربهم، فكلُّ ما حولنا من العالم العلوي والسفلي وما في أنفسنا وغيرها إنما هي وسائل توصلنا إلى معرفة الله وخشيته ومحبته، ليستعين بها المؤمن في عبادته لربه، فالكون يوصل المؤمن إلى تعظيم الله وتقديره، فمَن استغل ذلك أفلح في ابتلائه، ومَن لم يرفع به رأسًا خسر في ابتلائه كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ

---

(١) تفسير الطبري، (٢٣/ ٢٥١)، وهو أحد القولين في الآية، والقول الثاني: أن هذا مقدار صعود الملائكة من الأرض إلى السَّماء السَّابعة.

(٢) سلسلة الأحاديث الضعيفة، (٣/ ٣٧٠).



﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢]، فالعبرة في كيفية التعامل الصحيح مع ما حولنا من معطيات الدُّنيا، إنَّ العبودية هي أن نتعبد لله ونتذلل له حسب ما قدَّره لنا، فيكون الابتلاء والعافية والغنى والفقر إنما هي ميدان لنتعبد لله من خلالها. إنَّ عبادة الصَّحابة رضي الله عنهم كانت تتماشى مع يومياتهم، فإنْ أصابوا مالاً سخَّروه ليقربهم إلى الله، وإنْ فاتهم المال سخَّروا ظرفهم ليقربهم إلى الله، فلهم مع الفقر عبودية، ومع الغنى عبودية، ومع السلم عبودية، وفي الحرب عبودية، وعبودية حال العافية وعبودية حال المرض.



ومع هذه الحال يزيِّن الشَّيطانُ لنا الدُّنيا في أعيننا ويُنسينا الغاية التي خلقنا لها، كما قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧].

وتعلن نتيجة هذه الحرب يوم الحساب، ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾ [القارعة: ٦ ـ ١١]، وقد أعاد القرآن وزاد في ذكر يوم الحساب ومشهده



وفظاعة موقفه وشدته، وتخلي كل أحد عن أحد كما قال: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار: ١٩].

فقارئ القرآن إنْ لم يتمثَّل اليوم الآخر أمام عينيه، وفي حياته بعدما ينتهي من قراءة القرآن، فلم يستفد من قراءته؛ لأن هذا من مقاصد القرآن الكبرى.

من عجائب طرق القرآن: أنه يكرِّر الموضوعات كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ [الفرقان: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ ﴾ [طه: ١١٣].



تصريف الآيات: أي كرَّرناه بأساليب مختلفة، وأكثرها تكرارًا صور اليوم الآخر، والتعريف بالله ورسله وملائكته؛ فالمفترض أن ينتبه قارئ القرآن لهذا التنوع فيزداد تفكُّرًا وتدبُّرًا وإيمانًا، ولا أحسب هذا التصريف والتنويع للمواضيع إلا لينتقل العبد المؤمن من التصور الصَّحيح إلى اليقين الرَّاسخ.

التفنُّن في قراءةِ الوِردِ:

جَلَسَ معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما، وهما مَن هُمَا في قراءة القرآن، أحدهما أعلم النَّاس بالحلال والحرام من



خلال القرآن، والآخر أُوتي مزمارًا من مزامير آل داود، فسأل كلٌّ منهما صاحبه عن طريقته في قراءة القرآن، فقال أبو موسى رضي الله عنه: «أَتَفَوَّقُهُ تَفَوُّقَ اللَّقُوحِ»[1]، وقال معاذ رضي الله عنه: «أَنَامُ أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَأَقُومُ وَقَدْ قَضَيْتُ كَرَايَ، فَأَقْرَأُ مَا كُتِبَ لِي، فَأَحْتَسِبُ فِي نَوْمِي كَمَا أَحْتَسِبُ فِي قَوْمَتِي»[2].

فكلٌّ واحد منهما اتخذ طريقة تناسبه، فمعاذ رضي الله عنه أكمل، وأبو موسى رضي الله عنه أشمل لأجزاء الليل والنهار، ولم يعب أحدهما على الآخر، ونبَّه معاذٌ رضي الله عنه إلى أن النية تعوِّض ما كان من نقص، فمَن احتسب الأجر في نومته بأن ينوي بها الاستعداد للطاعة والتقوِّي عليها، كُتِبَ له ذلك كما يكتب سائر أعماله.



وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما يقرأ ورده أول الليل، وكان الحسين رضي الله عنه يقرأ ورده آخر الليل، وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ وردها على سريرها، وكان أحدهم إذا بقي عليه من حزبه شيءٌ فنشط قرأه بالنهار، أو قرأه من ليلة أخرى، وربما زاد أحدهم[3].

---

(١) أي: لا أقرأ وردي من القرآن مرة واحدة، وإنما أقرأه شيئًا بعد شيءٍ آناء الليل والنهار، مأخوذٌ من فُواق الناقة بأن تُحلب ثم تترك ساعة حتى تدر ثم تحلب. انظر: فتح الباري، (١/ ١٧٠).

(٢) صحيح البخاري، (٤٣٤١).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(١٨٧).

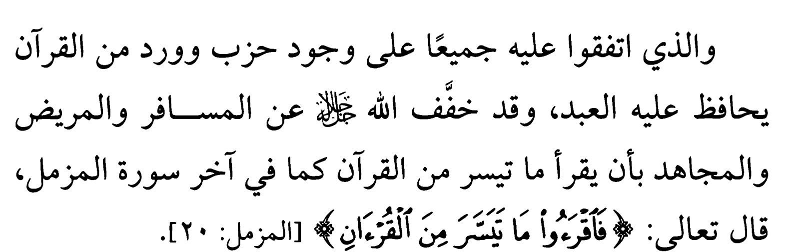


وبلغ بهم حفظ الوقت بالقرآن إلى أن الرجل إذا خرج للخلاء البعيد ثم رجع يقرأ القرآن أثناء رجوعه وقبل أن يتوضأ، كما حدث لابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم[1].

ومرةً استأذن عبد الرحمن بن عبد القاري رضي الله عنه على عمر رضي الله عنه بالهاجرة في وقت الحر، قال: «فحبسني طويلاً ثم أذن لي، واعتذر بأنه كان في قضاء وِرده»[2].

وكان ثابت البناني رضي الله عنه يقول ـ محفزًا همة أصحابه: «ما تركت في مسجد الجامع سارية إلا وقد ختمتُ القرآن عندها»[3].





والذي اتفقوا عليه جميعًا على وجود حزب وورد من القرآن يحافظ عليه العبد، وقد خفَّف الله جل جلاله عن المسافر والمريض والمجاهد بأن يقرأ ما تيسر من القرآن كما في آخر سورة المزمل، قال تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠].

وكثيرًا ما يعترض الشَّيطانُ العبدَ المؤمنَ في أداء وِرده، فإنْ أطاعه اعترض له في وقت القضاء أيضًا فأثقله عليه،

(١) المصدر السابق، ص(١٨٦).

(٢) المصدر السابق، ص(١٨٥).

(٣) حلية الأولياء، (١/ ٤٠٤).



وأشــغله بغيره حتى يفوت ثم يعتاد الفوت، وأحيانًا ينشــغل المؤمن ببعض الأعمال الصالحة من دعوة وعلم بحيث تأخذ وقته وتســتوعبها، ولا بأس بذلك إلا أن مكمــن الخلل هو اســتفراغ الأعمال للوقت كلِّه على حســاب القــرآن، مع أن القرآن هــو زاد الدَّاعي إلى الله، وعلى قــدر أخذه من القرآن تكون أعمالــه، وبهذا ينبغي أن ينظر الدَّاعيــة للقرآن على أنه مصدر إمداد له، كما هو ســلوك النبي ﷺ، فمع كثرة أعماله إلا أنه يحافظ على قراءة حزبه، وأحيانًا يسمعه من غيره بتدبُّر وتأمُّل وتفكُّر.



فخامة الختمة:

لحظةُ ختم القرآن ســواء حفظًا أو قــراءةً لحظةٌ مباركةٌ، وفيها من الفخامة ما يليق باهتمــام المؤمن بها، وقد جاء عن السَّــلف أن الرَّحمــة تنزل عنــد ختمة المصحــف[1]، وكان أنس بن مالك رضي الله عنه يجمع أهله عند ختم القرآن يدعو بهم[2]، وبعضهم كان يســجد شــكرًا، وبعضهم يصلي ركعتين يدعو

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة عن مجاهد، (٣٠٦٦٣) بسند صحيح عنه.

(٢) المصدر السابق، (٣٠٦٦١)، وسنده صحيح عنه.



فيهما، ومن اهتمام السَّلف أنهم كانوا يختارون الوقت الذي يختمون فيه، فإذا أراد أحدهم أن يختم من النهار أخَّره إلى أن يُمسي؛ لما جاء عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه موقوفًا عنه: «إِذَا وَافَقَ خَتْمُ الْقُرْآنِ أَوَّلَ اللَّيْلِ، صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُصْبِحَ، وَإِنْ وَافَقَ خَتْمُهُ آخِرَ اللَّيْلِ، صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُمْسِيَ، فَرُبَّمَا بَقِيَ عَلَى أَحَدِنَا الشَّيْءُ فَيُؤَخِّرُهُ حَتَّى يُمْسِيَ أَوْ يُصْبِحَ»[1]، فكانوا يؤخِّرون الختم؛ ليحصلوا على أتمَّ الأجر.

وداوم الصَّحابةُ الكِرامُ رضي الله عنهم والتَّابعون على ختم القرآن، وملئوا به أوقاتهم حسب قدرتهم واستطاعتهم، فابنُ مسعودٍ رضي الله عنه كَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ مِنَ الْجُمُعَةِ إِلَى الْجُمُعَةِ[2].



وكان علقمةُ رحمه الله يختم القرآنَ في كلِّ خمسٍ، والأسودُ رحمه الله يختمه في كلِّ ستٍ، وعبد الرحمن بن يزيد رحمه الله يختمه في كلِّ سبعٍ[3]، وأُبي بن كعب رضي الله عنه كان يختم القرآن في

---

(١) سنن الدارمي، (٣٨١٢)، وقال: «هذا حسنٌ عن سعدٍ».

(٢) أخرجه البيهقي في (الشعب)، (٢٠٥٥)، وسعيد بن منصور في (السنن)، (١٥٠)، وقال المحقق (٢/ ٤٥٢): «سنده رجاله ثقات».

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة، (٢/ ٥٠١)، وسعيد بن منصور في (السنن)، (١٥٢)، وقال المحقق (٢/ ٤٥٥): «سنده صحيح».



كلِّ ثمانٍ، وتميم الداري رضي الله عنه يختم في كلِّ سبعٍ[1]، وعثمان بن عفان رضي الله عنه يختم في ركعةٍ كما أخبرت عنه زوجته[2].

وحين يكون الوقت كلُّه للقــرآن يُلان لصاحبه القراءة، ألا ترون ليونة ســورة الكهف على ألســنتنا يوم الجمعة، وبعض السَّــلف أُلين لهم القرآن لكثرة قراءتهم وقوة حفظهم له، فقد تواتر عن الشَّافعي رحمه الله ختمه القرآن في رمضان ستين ختمة، وحريٌّ بمَن سَــمِعَ ذلــك أن يفعل كمــا فعل الإمــام الثبت أبو بكر بن الحداد رحمه الله قال: «أخذتُ نفسي بما رواه الرَّبيعُ عن الشَّافعي، أنه كان يختم في رمضان ستين ختمةً، سوى ما يقرأ في الصَّلاة، فأكثر ما قَدَرْتُ عَليه تسعًا وخمسين ختمةً، وأتيت في غير رمضان بثلاثين ختمةً»[3].



---

(١) أخرجه البيهقي في (الشعب)، (١٩٨٦)، وسعيد بن منصور في (السنن)، (١٥٤)، وقال المحقق (٢/ ٤٥٦): «سنده رجاله ثقات إلا أنه منقطع بين أبي قلابة وأُبي، والواسطة بينهما أبو المهلب».

(٢) أخرجه ابن ســعد فــي (الطبقــات)، (٣/ ٧٦)، وســعيد بن منصور في (الســنن)، (١٥٨)، قال المحقــق (٢/ ٤٧٧): «بمجمــوع الطرق يكون الحديث صحيحًا لغيره».

(٣) سير أعلام النبلاء، (١٥/ ٤٤٧).



وقد كان ختـــمُ القرآن ثقافـــةً عامةً لمجتمـــع المؤمن مع مجاهـــدة على العمل بـــه، ولهـــذا لا تســـتغرب إذا عرفت أن الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي رَحِمَهُ اللَّهُ كان يختم في ثلاثٍ، وله في رمضان أكثر من عشر ختماتٍ(١)، ولا عجب لأنه موقنٌ بأن هذه الختمات زادٌ له على إدارة شئون بلاده، والمأمون رَحِمَهُ اللَّهُ كذلك قيل أنه ختم ثلاثًا وثلاثين ختمة في رمضان(٢)، ومثل هذا العدد دليلٌ على علاقة مع القرآن في غير رمضان.

ومن أشـــهر الختمات ختمةُ المحدِّث شـــيخ الإسلام في زمانه أبو بكر بن عياش رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد حضرته الوفاة، فبكت أختُهُ، فقال لها: «ما يبكيكِ؟! انظري إلى تلك الزاوية، فقد ختم أخوكِ فيها ثمانية عشر ألف ختمة»(٣)، وهذا من ثمرات العمل الصَّالح أنَّ صاحبَهُ يُرزقُ الطمأنينة في اللَّحظات الحرجة، ومنها سكرة الموت - أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يهوِّنها علينا جميعًا.



فإنْ تقاصرت الهمة عن ختمات أبي بكر بن عياش رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فهنـــاك عبد الله بن إدريـــس الأودي رَحِمَهُ اللَّهُ، الإمـــام، الحافظ،

---

(١) المصدر السابق، (٤/ ٣٤٧).

(٢) تاريخ بغداد، (١٠/ ١٩٠).

(٣) سير أعلام النبلاء، (٨/ ٥٠٤).



المقرئ، القدوة، شيخ الإسلام، بكت ابنتُهُ أيضًا عند احتضاره، فقال: «لا تبكي يا بُنية، فقد ختمت القرآن في هذا البيت أربعة آلاف ختمة»(١)، وبعض العلماء أجاز ختم القرآن بأقل من ثلاث باعتبارات خاصة ذكرها أهلُ العلم(٢).

أما ختمُ القرآن في رمضان؛ فهذا متواتر عندهم، فالإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يختم في رمضان في النَّهار كلَّ يوم ختمة، ويقوم



(١) المصدر السابق، (٩/ ٤٤).

(٢) قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه على (صحيح مسلم)، (٨/ ٤٢): «وَقَدْ كَانت للسَّلفِ عَاداتٌ مختلفةٌ فِيمَا يَقرءونَ كُلَّ يَوْمٍ بِحَسَبِ أَحْوَالِهِمْ وَأَفْهَامِهِمْ وَوَظَائِفِهِمْ، فَكَانَ بَعْضُهُمْ يَخْتِمُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ، وَبَعْضُهُمْ فِي عِشْرِينَ يَوْمًا، وَبَعْضُهُمْ فِي عَشَرَةِ أَيَّامٍ، وَبَعْضُهُمْ أَوْ أَكْثَرُهُمْ فِي سَبْعَةٍ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي ثَلَاثَةٍ، وَكَثِيرٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَبَعْضُهُمْ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ، وَبَعْضُهُمْ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ثَلَاثَ خَتَمَاتٍ، وَبَعْضُهُمْ ثَمَانَ خَتَمَاتٍ وَهُوَ أَكْثَرُ مَا بَلَغَنَا، وَقَدْ أَوْضَحْتُ هَذَا كُلَّهُ مُضَافًا إِلَى فَاعِلِيهِ وَنَاقِلِيهِ فِي كِتَابِ (آدَابِ الْقُرَّاءِ) مَعَ جُمَلٍ مِنْ نَفَائِسَ تَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ، وَالْمُخْتَارُ أَنَّهُ يُسْتَكْثَرُ مِنْهُ مَا يُمْكِنُهُ الدَّوَامُ عَلَيْهِ، وَلَا يَعْتَادُ إِلَّا مَا يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّهِ الدَّوَامَ عَلَيْهِ فِي حَالِ نَشَاطِهِ وَغَيْرِهِ، هَذَا إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ وَظَائِفُ عَامَّةٌ أَوْ خَاصَّةٌ يَتَعَطَّلُ بِإِكْثَارِ الْقُرْآنِ عَنْهَا، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ وَظِيفَةٌ عَامَّةٌ كَوِلَايَةٍ وَتَعْلِيمٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ فَلْيُوَظِّفْ لِنَفْسِهِ قِرَاءَةً يُمْكِنُهُ الْمُحَافَظَةَ عَلَيْهَا مَعَ نَشَاطِهِ وَغَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ إِخْلَالٍ بِشَيْءٍ مِنْ كَمَالِ تِلْكَ الْوَظِيفَةِ، وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ مَا جَاءَ عَنِ السَّلَفِ وَاللهُ أَعْلَمُ».



بعد التراويح كلَّ ثلاثِ ليالٍ بختمة[1]، وكثيرٌ منهم في تراجمهم يختمون في رمضان كثيرًا[2].

وإذا كان المؤمن يفرح بفطره إذا أفطر، فإذا ختم كلام ربه فرح بختمه، وإذا كانت الملائكة تحضر عند قراءة المؤمن القرآن فتحضر عند ختمته، وللختمة فرحة سرور هي من الجزاء العاجل للمؤمن.

وهناك لذة أخرى يعرفها الحافظ المتقن وهو الانتهاء من وِرده بدون خطأ، وصلاته بما يحفظه من قرآن بدون أخطاء. قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كنتُ أتحدَّى النَّاس بحفظ القرآن حتى صليتُ خلف مسلمةَ بن مخلَّد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فافتتح البقرة فما أخطأ فيها واوًا ولا ألفًا».



ولذة أخرى يجدها معلِّمُ القرآن حينما يُزيِّنُ الطالب صوتَهُ بالقرآن ولا يخرم منه حرفًا، ولما قرأ علقمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على شيخه عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في حلقة التحفيظ، فأُعجب بصوته وحفظه، فقال له: «رَتِّلْ فداك أبي وأمي»[3]، ففداه بأبيه وأمه حينما سمع القرآن بترتيل.

---

(١) سير أعلام النبلاء، (١٢/ ٤٣٩).

(٢) المصدر السابق، (١٢/ ١٠٩)، (٢١/ ٢٦٦)، (٢١/ ٤٧٠)، (٢٣/ ١٢)، وغيرها كثير.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة، (٣٠٧٧٨)، وهو حسن مقطوع.



وكانت هناك ظاهرة غريبة في عهد المتقدمين من السَّلف الصَّالح وهي أن بيوتهم لها دَوِيٌّ بالقرآن، ولأجل أن تعرف الدَّوِيَّ هو أشبه ما تسمعه يوم الجمعة في المسجد أثناء قراءة المصلين للقرآن من غير أن يشوِّش أحدهم على الآخر، فكان جميع أهل البيت يقرءون القرآن، فإذا خرجوا من بيوتهم رأيت آثار القرآن على سلوكهم وبَيْعهم ومعاملتهم وجهادهم ودعوتهم وسائر شئونهم، ولهذا لما تغيَّر ذلك قليلاً قال أبو الأحوص رضي الله عنه: «إنْ كان الرجل ليطرق الخباء فيسمع فيه كدَويِّ النَّحل، فما لهؤلاء يأمنون ما كان أولئك يخافون»[1]، وحكى كعب الأحبار رضي الله عنه أن هذه الأمة ذُكِرَتْ أوصافهم في التَّوراة ومنها: لهم دويٌّ كدَوِيِّ النَّحل[2].



وقال الدمشقي رحمه الله: «ربما كان المطر وقُرَّاء القرآن من الليل فلا يدرون أي الصوتين أرفع: المطر أو قراءة القرآن»[3]، وهذا من توافق راحة القلب وأنسه بالقرآن مع أنس النفس بالمطر، وإذا حصل التوافق وهو التواطؤ كان أدعى للتدبُّر والفهم.

---

(١) المرشد الوجيز، ص(٢٠٩).

(٢) تاريخ دمشق، (١/ ٨٦).

(٣) موسوعة ابن أبي الدنيا، (١/ ٣١٠).



القرآن والتاريخ الماضي:

لماذا اختار الله لنا بعض قصص الماضين دون غيرها؟

ولكي ندرك المقصود من وراء السؤال دعني أشرح السؤال بشكل أوسع:

إن الذين عاشوا على الأرض منذ أن خلقها الله عددٌ لا يحصيهم إلا الله، فكم حصل في تاريخهم ما يوجد فيه عبرةٌ لنا؟ وكم من كلمة تكلموا بها؟ وكم من طاعة فُعلت لله؟ وكم من معصية عُصي الله بها؟ فلم يذكر الله لنا إلا أشياء محددةً دون غيرها!



فلماذا اختار الله لنا من الأنبياء الذين لا يعلم عددهم إلا الله إلا هؤلاء المذكورون في القرآن؟!

ومن الذين ناصروا الأنبياء لم يذكر الله لنا إلا مؤمن آل يس ومؤمن آل فرعون؟!

ولماذا اختار الله لنا من كلام لقمان هذه الجمل دون غيرها؟

وكم من حيوان تكلم مع نبي الله سليمان عليه السلام، فلماذا لم يخبرنا الله إلا بكلام الهديد؟ وكم يوجد حشرة في عهد سليمان تكلمت فلماذا لم يخبرنا الله إلا بخبر النملة؟



كم جملة قالها بنو إســرائيل لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فلماذا لم يخلد إلا بعض تلك الجُمل كقولهم: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ لأن هذه الجملة ســتتكرر بلفظها وبمعناها وقريبًا من لفظها، وقد يكون ذلك من قارئ هذه الآية.

إن ذلك يرجع إلى اسم الله العليم الحكيم، فعلم سبحانه أن هذه الأمة تحتاج من قصص الســابقين هذا القدر، وهذه الجملة، وهذا الخبر، وهذه القصــة، وهذه الحاجة إما لزيــادة عبودية أو معالجة خلل. ففي جانب ذنوب الأمم الماضية خلَّد الله لنا ما علم ســبحانه وهو العليــم أن هذه الأمة ســتُبتلى فيــه دون غيره من الذنوب، فأعطانا الله خبرًا عن ذلك الذنب وعلاجه وسبب انتشاره وآثاره على الســابقين. فجمــع الله لنا في القــرآن أخبار الأولين والآخرين مما نحتاجه دون غيره، فاختصر بذلك العمر علينا.



هذا كله يحملنا على أن نعيد النظر في كل خبر أُخبرنا عنه، لأنه لم يكن مجرد تسلية وإيناس، إنما لأن القارئ لتلك الآية وقع ببعض ما وقعوا فيه، فيقرأ مرضه أمامه وعلاجه، ويقرأ فعل الله بأمثاله من السابقين.

وسأُطرب القارئ الكريم بجملة لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفتح لنا آفاقًا في فقه العقوبات، فقد يظن قارئ القرآن أن الله أخبرنا عن



خسفه بقارون وقلبه القرى على قوم لوط، وأن تلك العقوبات انتهت لانتهاء المقصودين بها، إلا أن ابن القيم يرى أن العقوبات إذا نزلت فإنها تمكث في الأرض تبحث عمن يستحقها فتصيبه، لأن الأرض كانت خالية من العقوبات لكن إذا نزلت بقيت، فبمثل خسف قارون خسف الله اليوم بالمتكبر، بأن يُلقى في حفرة، أو يخسف بقلبه وأخلاقه وذريته خسفًا لا يقل درجة عن خسف قارون وداره. وقلَّ مثل ذلك في قوم لوط وأشباههم فلا تزال عقوبة القلب والتنكيس عليهم وعلى أخلاقهم وقلوبهم وعقولهم وفكرهم واهتماماتهم وإراداتهم، والآن اسمع قول ابن القيم: «ولا ريب أن العقوبات التي أنزلها الله في الأرض بقيت آثارها سارية في الأرض تطلب ما يشاكلها من الذنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الأمم، فهذه الآثار في الأرض من آثار تلك العقوبات، كما أن هذه المعاصي من آثار تلك الجرائم، فتناسبت كلمة الله وحكمه الكوني أولا وآخرا»[1].



والمقصود التركيز في كل لفظ في القرآن لأنه مقصود لك أنت إما في نفسك أو أهلك أو من حولك.

---

(١) الجواب الكافي، ص٦٦.



۞ القرآن والمستقبل القادم:

فصَّل الله المســـتقبل تفصيلًا، فكما أخبرنا عن أعمق نقطة زمنية في الماضي وهو خلق الله للخلق، حينما كانت الســـماء دخانًا، فقد أخبرنـــا أيضًا عن أقصى نقطة في المســـتقبل وهو دخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وما بيننا وبين ذلك، فصَّله وأوضحه وبينه، فأخبرنا عن يأجـــوج ومأجوج، وطلوع الشمس والدابة، والحشر، وأهوال تجعل الولدان شيبًا.

وأخبرنا عن بعـــض كلام أهل الجنة وجلســـاتهم، وبعض حوارات النار وأخبارهم، ومن عجائب ذلك أنه أخبرنا سبحانه حين مشهد مؤثر حينما تتلقَّى الملائكةُ بأهل الإيمان، يعرفونهم بســـيماهم، ويرون في وجوههم آثار الخوف، فيدخلون عليهم الطمأنينة قبل رؤيتهم لها، ويبشرونهم قبل ظهور النتائج، ولكي تعرف فضل هذا المشد الذي اختاره الله راجع ذاكرتك يوم أن ذهبت إلى لجنة اختبار، أو راقبت اســـمك في لائحة الأسماء الحاصلين على وظيفة، أو المفرج عنهم، فمر بك رجل رأيت في وجهـــه الخير، فاســـتقبلك بكلام مطمئن مبشـــر، وأعطاك رؤوس أقلام عما أمامـــك، فزال عنـــك روع الرهبة، وتبدَّلت مشـــاعرك من شـــعور رهبة وقلق إلى انتظار إحدى البشارات، فلا تزال تحفـــظ لذلك الرجـــل موقفه، أعظم مـــن ذلك فعل





الملائكة، فاسمع - كأنك ترى هذا المشهد -: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ كم جددت هذه الكلمة الملائكية أعمال قلوب يحتاجها العبد في ذلك الموقف، فلا يزال الرجاء والثقة والطمأنينة حيةً في قلوبهم.

إن حضور المستقبل كاملًا في القرآن الغاية منه حضور الدار الآخرة في القلب، والاستعداد لها، إن الله فصَّل فيها الكلام تفصيلًا لإزالة بذور الشك التي يلقيها الشيطان، ثم يسقيها بماء المعاصي والذنوب.



يكاد القرآن أن يكون كله عن الدار الآخرة، بلفظ مباشر وغير مباشر، وهذا كله يورث عددًا من أعمال القلوب، وأهمها:

١- الزهد الشرعي: والذي يقوم على ترك كل ما لا ينفع في الآخرة، فكل لذة محرمة يزهد فيها المؤمن لوجود لذة أعظم منها في الآخرة، وكل خوف في الدنيا من غير الله يزهد فيه المؤمن لخوف أعظم منه وهو لقاء الله، ولا يزال الزهد بالعبد المؤمن حتى يجعل حياته كلها لله، فيزهد في كل لحظة لا توصله لله فيبيع حياته كلها لله كما قال الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.



ولأن الزهد بهذا المعنى يصادم عمل الشـيطان، فقد عمل الشيطان حيلة أخرى لإبطاله، فلم يزيله من أصله إنما حرفه عن قصده، وهو الزهد الصوفي المحرَّف المبدل، وأوصل بعضهم إلى الزهد في كثير من الطاعات.

٢ـ الشوق للقاء الله: إن القلب الذي يوقن بأن القرآن كلام الله، وأنــه تكلَّم به على الحقيقة، لن يشـبع منــه، لأن الله هو مقصود المؤمن الأعظم، فإذا وجد شيئًا يختص بمولاه تمسَّك به ولازمه. وهذا القلب سـيرى الآخرة فـي كل آية من آيات القــرآن، ويراها أقرب مــن حبل الوريد، سـيحمله ذلك على الشوق لقراءة كلام الله، ثم شـوق لمناجاته وذكره والقيام بين يديه، وشوق لسـماع النداء للصلاة، وشوق للمؤمنين، وشوق لمحبوبات الله، فتجتمع هذه المشـوِّقات لتوصل صاحبها إلى منزلة الشـوق لله. إن القلب الذي لا يشـتاق لقراءة كلام الله وسماعه وتدبره وذكره لن يشتاق لله ولو ادعى ذلك.



وأعتذر للقـارئ الكريـم لأني أعـدت أو سـأعيد هذا المضمون أكثر من مـرة؛ لأنه المقصود فلابـد أن نصل إليه، فالمقصود بيان حضور الدار الآخرة في القرآن الكريم وأثر ذلك على العبودية، فعلى قارئ القرآن أن يتلمس ذلك في كل آية من آيات القرآن.



القرآن وأسئلة الوجود الكبرى:

لكل عصر أسئلته الكبرى التي تتعلق بوجود الإنسان، ويُبنى على الجواب عليها سلوك الإنسان وتصرفاته وحياته، وفي عصرنا الحالي الأسئلة الوجودية الكبرى هي:

سؤال الخلق: مَن أين أتينا؟

وسؤال المعنى: لماذا نحن موجودون في هذه الحياة؟

وسؤال المصير: إلى أين نسير؟

إن هذه الأسئلة ليست «مشروعة فحسب، وإنما هي أسئلة ضرورية ملازمة للوجود الإنساني، لأن هذا القلق الوجودي هو ما يميز الإنسان عن بقية المخلوقات من الأساس»(١). فليست الأسئلة إذن خاصة بعصرنا بل هي أسئلة العبودية لكل عصر، وأقصد بالعبودية هنا المعنى العام، فهذه الأسئلة من خصائص العبد، لأنه فقير مخلوق ضعيف، فالأسئلة بحد ذاتها تثبت عبودية الإنسان وأنه لابد له من إله يُعلِّق عليه إجابة أسئلته المحيرة، ولهذا لا تُوجه هذه الأسئلة إلى الله فلا يقال: مَن خلق الله؟ ومن وجد ذلك «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَه»(٢).



---

(١) لماذا نحن هنا، ص٣٦.

(٢) البخاري (٣٢٧٦).



وقبل هذه الأسئلة سؤال آخر: مَن أين نأخذ الجواب؟ وما مصدر العلم بها؟ إن هذه الأسئلة تكشف الفرق بين يقين المؤمن وقلق غيره، هذه الأسئلة تعتبر من الأسئلة العميقة في العصر الحالي، وبعض من يملك زمام التقدم الصناعي قد لا يملك الإجابة عليها، بينما هي تعتبر من الأسئلة البدهية الواضحة عند المسلمين، هذه المفارقة تكشف الفارق بين مصدر المعرفة عند الأمم، فأمة الوحي يملك أطفالها أجوبة الأسئلة التي تعتبر عند غيرهم أسئلة محيرة!، وأطفالها ذكرتها ليس على سبيل المبالغة بل على الحقيقة، فالطفل المسلم يدرس فأول ما يدرس أسئلة الأصول الثلاثة:



من ربك؟ ما دينك؟ مَن نبيك؟

إن أسئلة الوجود والمعنى تُجيب عنها سورة الفاتحة، ويفصِّلها قصار المفصَّل، كما أن هذه الأسئلة انتهت مع أول آيات القرآن نزولًا، فأول ما نزل من القرآن قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ فبينت أصل الإنسان، ووجود ربه، وأن إيجاده له هو مجرد إكرام وفضل، وأجابت عن جهة مسيره بأن إلى ربه الرجعى، وأبرزت العبودية ومكان الانقياد والاستسلام لله، ولم يقطع القرآن إجابة هذه



الأسئلة إلى آخر ما نزل منه وهو قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ فقررت مسيره لربه، ولفظ (ترجعون) يدل على أن البداية من الله، وهو سؤال الخلق، وسيحاسب على مافعل وهو سؤال المعنى.

إن القرآن غيَّر وجهة هذه الأسئلة فحولها من أسئلة محيرة إلى أسئلة عبودية يتعبد فيها المؤمن لربه في فقهها واستحضارها وأصبحت العلم بها مقصودًا، لأثرها على سلوكه وحياته.

إن أسئلة الوجود الكبرى نردد جوابها مع أذكار الصباح والمساء، ففي أذكار الصباح والمساء يردد المؤمن: «رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا رسولًا»[(١)].



ويقول المؤمن في الصباح والمساء: «اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وإليك النشور» ويقول: «وإليك المصير»[(٢)].

سؤال من أين أتيت؟ يجيب عنها: «بالله ربًا»، و»بك أصبحنا وبك أمسينا»، ومثلها: «باسمك اللهم أموت وأحيا»[(٣)]، ومثلها: «رب كل شيءٍ ومليكه»[(٤)]

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٨٩) وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٩٩١) وقال: حسن صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٢٤).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٣٩٢) وقال: حسن صحيح.



وقوله: «وإليك النشــور»، و»إليك المصيــر»، ومثلها قول المؤمن عند النوم:»اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك»[1] هي جواب: إلى أين نسير؟.

إن أسئلة الوجود يجيب عنها سيد الاستغفار ويجيب على ماهو أصعب منها وما هو أعمق، ولهذا استحق وصف السيادة على الأذكار، وهو قول النبي ﷺ: «اللَّهُــمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ »[2].

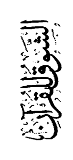


سيد الاستغفار يجيب على كل سؤال يحقق العبودية، وكل سؤال يحير العبيد، وأزعم أن كل شبهة تتعلق بالوجود تتحطم عند ألفاظ سيد الاســتغفار، حتى أن الشيطان لا يطمع أبدًا في إلقائها في قلب المؤمن الموقن بســيد الاســتغفار، الفقيه في مبانيه والعامل بمعانيــه؛ لأن نور هذا الحديث الســيد يحرق الشياطين، إن نور سيد الاســتغفار يطفئ ظلام الجمل التالية: (الله ليس موجودًا)، و (الأديان فكرة سخيفة)، و(الدين للأغبياء)

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٩٩) وقال: حسن.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).



إن أسئلة الوجود والمعنى نردد جوابها في كل ركعة، ففي الفاتحة التي لا تصح صلاتنا إلا بها جواب لأسئلة الوجود وما هو أعمق منها، بل في كل آية جواب بشكل مباشر وغير مباشر على أسئلة الافتقار وهي أسئلة الوجود الكبرى، فقولنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تجيب عن البداية، فنحن مربوبون، ومن العالمين، فكل ماعدا الله هو من العوالم المربوبة، وقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ هي جواب على سؤال المصير، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هي جواب لسؤال المعنى، وهي الغاية من الخلق عبودية الله.



لا ننس ونحن نذكر إجابة القرآن على أسئلة الوجود أن نتحدث بنعمة الله علينا أن طهَّر قلوبنا عن القلق والشك والريبة فيها، وعلى وضوحها عندنا، ونعمة وضوح إجابات هذه الأسئلة يغطي عندنا ما يصيبنا في الدنيا من آلام ومتاعب.

إن أسئلة الوجود لا يصلح أن تلقى على المسلم؛ بل يجب أن تؤخذ منه، فقد جرت العادة أن الجبان لا يحق له انتقاد الشجاع لاختلاف مقاييس النقد بينهما، فبعض ما ينقده الجبان يراه الشجاع الميزة التي اختص بها بين الناس، إن مقام المتشكك أمام الموقن أشد من الجبان أمام الشجاع، إن

الشـــكَّاك المرتاب لا يحق له أن يجلس أمـــام المؤمن الموقن بإتيانه ومصيره وماهيته، فيجلس جلسة المتعلم ويأخذ من حيث أخذ.

إن ســـؤال الوجود الأول: من أين أتيـــت؟ لا يمكن لمن لا يثبت وجـــود الله أن يجيـــب عنه، فكيـــف والمؤمن تجاوز الإيمـــان بوجود الله إلى الإيمـــان به وبملائكته وكتبه ورســـله ولقائه، وعرف اسماءه وصفاته، ومحبوباته ومبغوضاته، وآثاره وأفعاله، أرأيتم الفرق بين من لا يعـــرف من أين أتى وبين من عرف ما قبل ذلك وما بعده؟!



إن من يقرأ الفاتحة وأية الكرسي وخواتيم البقرة والمعوذات يملك الإجابة على كل سؤال يتعلق به عمل، ولهذا قال النبي ﷺ عن خواتيم البقرة:» إِنِّي أُوتِيتُهُمَا مِنْ كَنْزٍ مِنْ بَيْتٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَلَـــمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلِـــي»[1]، وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ عن المعـــوذات: «لم يُرَ مثلهن قط»[2]، وأما الفاتحة فهـــي الفاتحة لكل جواب والمغلقة لكل حيرة، وكما أن الله جمع فيهـــا علم الأولين والآخرين فقد أبطل فيها كل شبهات الشيطان التي أضل بها من قبلنا.

(١) أخرجه أحمد ٢١٣٤٣.

(٢) أخرجه مسلم ٨١٤.



إذا كان بعض ملاحدة العصر الحالي لا يسعون إلا لسؤال (كيف) تأثرًا بالواقع المادي المعاصر، فإن القرآن وما تفرع عنه من أذكار النوم والاستيقاظ والركوب والبسملة والحوقلة والأدعية وغيرها تتجاوز سؤال (كيف) إلى سؤال (لماذا) و (أين) و (ما هو)، وإذا كانت أسئلة الوجود تسأل عن أصل وجود الإنسان فالقرآن أجاب عن أصل وجود الكون كله كما قال الله ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١١].



إن كل كلام بعد هذه الآيات فيما يتعلق بأصل الوجود، وما بُني من نظريات كنظرية أزلية الكون وأنه لا بداية له التي تبناها الفلاسفة والملاحدة قديمًا وحديثًا يسميها القرآن (ظلمات) وليست نظريات، وهي خيالات العبد الذي لم يعرف سيده ليدله ويرشده، فحتى خيالات العبد دليل على فقره لسيده واستسلامه وانقياده له.

فالمقصود جواب القرآن عن أسئلة العصر، ولعل متخصصًا أكثر عمقًا بالفكر يتولى تناول القرآن لتلك الأسئلة ويقارن بين جواب القرآن وأجوبة النظريات المادية المعاصرة لنستبين سبيل المجرمين.



۞ القرآن يغيب ثم يحضر:

كم قرأنا أية ثم تجاوزناها ولم تفعل فينا فعلها، ثم قرأناها مرة أخرى فكأننا لأول مرة نسمعها، إن كل آيات القرآن فاعلةٌ ولابـــدَّ، ومؤثرة على الحقيقـــة، وأُنزلت للقلـــب، وهي دواؤه وشـــفاؤه، فإن لم يحصل هذا التفاعل فالعلة في القلب لا في الآية، فاطلب حياة قلبك بقراءة الآية مرة أخرى، إن من أسرار القرآن أن القلب يحيا عند آية قد قرأها سابقًا ولم يحيا عندها، فكأن القرآن يختار الوقت المناسب لحياة القلب، فهو كالغيب الـــذي لا بد أن يوافق وقتًا مناســبًا لإنبات النبـــات، وقد ينزل الغيـــب ولا ينبت النبات لأمر يتعلق بـــالأرض بعد حكمة الله، والقلب كالأرض وهو مُشبَّه بها.



إن معرفة هذه الســـنة القرآنية يجعل القارئ للقرآن يتلمس أوقات حيـــاة قلبه لتحيـــا بالقرآن، فقد لا يطـــول الوقت، وقد لا يسعفه الظرف، وقد لا يتهيأ الأمر، فلا تظن أن قرب القرآن بجوارك، وسهولة قراءته، وتيسر معرفة معانيه سيبقى لك دائمًا! وثد أكثر السلف من التصريح بملل القلب، وإدباره[1]، ووضعوا خطة علاجية لذلك، فإن أدبر القلب عالجوه بأطراف الحكمة

---

(١) ذكر ابن أبي الدنيا عددًا من الآثار عن علي وابن مسعود ﷺ ٦/ ٤٨٥.



وشيءٍ من اللهو، وإن أقبل أعطوه حظه من القرآن والسنة. إن كلام السلف في ذلك يجعلنا نعيد علاقتنا مع قلوبنا، فقد وصلت بهم العلاقة والمعرفة أن يعرفوا حال القلب من الإقبال والإدبار، إنهم استطاعوا أن يفصلوا في المعرفة بين القلب والنفس، فقد تنشرح النفس فيتفلتُ القلب عن ورده من القرآن، إن جهلنا بقلوبنا يمتد لدرجة أننا لا نعرف وجه إقبالها وإدرباها، نسأل الله أن يعلمنا ويزيدنا علمًا، إن أدق الفقه أن نفرق بين قلوبنا وأنفسنا، فما يصلح لقلوبنا قد لا تهواه أنفسنا، وما تنشرح له أنفسنا قد لا يناسب قلوبنا، إن قلوبنا لا يصلح لها إلا الوحي وآيات القرآن، وهي تطلب فقهها وفهمها وأن نعيد ونزيد من هذا الدواء الشافي حتى تقبله وتعاف غيره.







القسم السابع
تدبُّر آية خيرٌ من ختمة

قراءة آية بتفكُّر خير من ختمة بغير تدبُّر[1]:

وهذا مما لا يكاد يقتنع به البعضُ لأول وهلة، ظنًّا منهم أن الأجر على قدر الأحرف، وليس الأمر كذلك بل الأجر وصلاح القلب والحـال والدُّنيا والآخرة على فقه الآيـة ومعرفة معناها والعمل بها، وقد كان السَّلف يكرِّرون بعض الآيات ليلة كاملة، كانوا يقرءون القرآن، وفجأة يقع أحدهم على آية فيها شـفاؤه وسـعادته وصلاح قلبه ونزول هدايته، فكأنه ينكشف له غطاء على عيون قلبه، فيبصر بأعينٍ لم يبصر بها من قبلُ، ولهذا تجده يكرِّر هذه الآية كرجل وجـد كنزًا مدفونًا، فأخذ يحفر في نفس المكان، وكلما حفر انهال عليه الذَّهب، بل ما ينفتح على القلب من آثار القرآن ـ إذا وفق الله ـ أغلـى وأعلى من كنوز الذهب، واسـمع ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتكلَّم عن تدبُّر آية واحدة؛ حيث قال: «وَبِالْجُمْلَةِ فَلَا شَـيْءَ أَنْفَع للقلب من قِرَاءَة الْقُرْآن بالتدبُّر



---

(١) مفتاح دار السعادة، (١/ ٥٥٣).



والتفكُّر؛ فَإِنَّهُ جَامعٌ لجَمِيع منَازِل السَّـائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وَهُوَ الَّذِي يُورث الْمحبَّة والشَّوق وَالْخَوْف والرَّجاء والإنابة والتوكل وَالرِّضَا والتفويض وَالشُّـكْر وَالصَّبْر وَسَائِر الأحوال الَّتِي بهَا حَيَاة الْقلب وكماله، وَكَذَلِكَ يزْجر عَن جَمِيع الصِّفَـات والأفعال المذمومـة وَالَّتِي بهَا فَسَـاد الْقلب وهلاكه، فَلَو علم النَّاس مَا فِي قِرَاءَة الْقُرْآن بالتدبُّر لاشتغلوا بهَا عَن كلِّ مَا سواهَا، فَإِذا قَرَأَهُ بتفكُّرٍ حَتَّى مرَّ بِآيَة وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا فِي شِـفَاء قلبه كرَّرها وَلَو مائَة مرَّة وَلَو لَيْلَة، فقـراءةُ آيَةٍ بتفكُّر وتفهُّم خيرٌ من قِرَاءَة ختمة بِغَيْر تدبُّر وتفهُّم وأنفع للقلب وأدعى إلى حُصُول الإيمان وذوق حلاوة الْقُرْآن»[١].



ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يقارنُ بين ختمةٍ من الختمات التي نحرص عليها في رمضان، مـع أن هناك العديدَ مـن الآيات لم نفهم معناها، ولم نتفاعل معها، وتختلف قلوبنا أثناء القرآن فتشـرد أذهاننا، ونفكِّر في دنيانا وألسنتنا تقرأ آية في التحذير من الدُّنيا والاغترار بها، إنَّ ختمةً مثل هذه الختمة المتهلهلة ضعيفة الأثر على القلب، وأخطر ما فيهـا أنها تورثنا رضا عـن ذواتنا بأن ختمنا كلام ربنا!!

(١) المصدر السابق، (١/ ١٨٧).

ولو كان مجرد القــراءة مقصود لذاته لمــا مَنَعَ النبيُّ ﷺ عبد الله بــن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن يقرأ القــرآن في أقل من سبعٍ[1]؛ لأنه يســتطيع أن يقرأه قراءة مجردة عن الفهم في أقل من ذلك بكثير، وقال أيضًا ﷺ: «**لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ**»[2]، فَاتَّضَــحَ أن النهي عن قراءة القرآن في مدة قليلة إنما هو لأجل عدم فقهه؛ لأن الآيات تحتاج إلى تركيز وترديد وترتيل وتَفَهُّم.

وأختمُ بقول ابن عبَّاس رضي الله عنهما قــال: «لَأَنْ أَقْرَأَ الْبَقَرَةَ فِي لَيلةٍ وَأَتفكَّر فِيهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ هَذْرَمَةً»[3]، وهذا مِنْ فقهه رضي الله عنه، فإنَّ التفكُّر في سورة واحدة والوقوف مع آياتها أفضلُ وأكثرُ أثرًا على القلب من ختمة خالية عن ذلك.

افهم المعنى وتدبَّرْ:

مما ينبغي أن ينتبــه له أن كلَّ قارئ للقــرآن فاهمٌ لمعاني الآيات؛ فإنه يستطيع أن يتدبَّر تدبرًا يتوافق مع علمه، وقد روى أبو عبيد القاســم بن ســلام رحمه الله عَنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ

---

(١) صحيح البخاري، (٤٧٦٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٤٩)، وصحَّحه الألباني في (صحيح ابن ماجة).

(٣) صفة الصفوة، (١/ ٣٧٢).



حَنْطَبٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُــولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ فِي مَجْلِسٍ، وَمَعَهُ أَعْرَابِيٌّ جَالِــسٌ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلــة: ٧ ـ ٨]، فَقَــالَ الْأَعْرَابِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِثْقَالُ ذَرَّةٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ». فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: وَاسَوْأَتَاهُ. مِرَارًا، ثُمَّ قَامَ وَهُوَ يَقُولُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ دَخَلَ قَلْبَ الْأَعْرَابِيِّ الْإِيمَانُ»(١).

هذا الأثرُ يعطينا تصورًا عن تدبُّر غير المختص، وهو سؤال كثيرًا ما يطــرح: هل كل أحد يســتطيع أن يتدبر؟ حتى الرجل العامي الذي ليس لديه علم؟!

والجواب: إنَّ كلَّ أحد فهم شيئًا يستطيع أن يتدبَّره، فالتدبُّر مرتبــط بالفهم ومعرفة المعنى، ولا شــكَّ أنــه إذا ازداد علمًا ســيزداد تدبرًا، فهذا الأعرابي فَهِمَ قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧] أنَّ كلَّ شــيءٍ مهما صغر من خير أو شــر فلن يضيــع، وفهم أن مثقال الــذر يدلُّ على الصِّغر، فتفاعل معها وقال: وَاسَــوْأَتَاهُ، وكرَّرها مرارًا؛ مما يدلُّ أن شــعورًا خالطه أثمر لــه هذا النَّــدم، فندم علــى التفريط بالخيرات، وتحسَّــر على الشــرور التي عملها مما هي مثاقيل

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(٢٧٨).



ذر.. هذا هو التدبُّر الشَّرعي الذي أثمر عملاً وندمًا وتوبةً يحبُّها الله ﷻ، فآية أثمرت توبة وإنابة لله.

ولو كان المتدبر من فضلاء الصَّحابة ﷺ لكان التدبُّر أعمق من ذلـــك، وأثره عليه أعمـــق وأكثر، وهكذا التدبُّـــر يزداد مع العلم، فابن مســـعود ﷺ مثلاً قال: «لَوْ أَعْلَـــمُ أَنَّ أَحَدًا تُبَلِّغُنِيهِ الْإِبِلُ أَحْدَثَ عَهْدًا بِالْعَرْضَةِ الْأَخِيرَةِ مِنِّي لَأَتَيْتُهُ، أَوْ لَتَكَلَّفْتُ أَنْ آتِيَهُ»(١). ومثله أبو الدرداء ﷺ قال: «لَـــوْ أَعْيَتْنِي آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ ﷻ، فَلَمْ أَجِدْ أَحَـــدًا يَفْتَحُهَا عَلَيَّ إِلَّا رَجُلاً بِبُـــرْكِ الْغِمَادِ لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ»(٢).



ونلاحظ أن ضابط التدبُّر هـــو العمل، كما أن العمل يزداد مع زيادة العلم؛ فالعِبـــرة ـ إذن ـ بما يحدثه التفكُّر والتأمُّل في الآية، ويحسن التنبيه إلى أن خبرة الحياة هي أيضًا علمٌ، فإذا قرأ آية وكان لديـــه خبرة من الحيـــاة تعزز تلك الآية وترســـخها، فيتفاعل معها ويزداد إيمانًا.

وكثيرٌ من المســـلمين إذا ســـمعوا آيات الموت والعذاب يعرفون معناها ويتفاعلون معها بدمع العين أو خضوع القلب،

---

(١) المصدر السابق، ص(٢٧٨).

(٢) المصدر السابق، ص(١٠١).



وتجد آثار بعض الآيـــات تمتد لعدة أيام يجدها المســـلم من نفسه، مما يدلُّ على أن التدبُّر مقدور للعبد المؤمن على حسب حاله وإيمانـــه وخبرته في الحياة، وكم من آيـــة فهمها المؤمن فغيَّرت كثيرًا من حياته.

وأما المســـلم الذي يســـتطيع القراءة والكتابة اليوم ويفهم ما يقرأه من كتب وأخبار، فهو قـــادرٌ على فهم معاني كثير من الآيات، ويستطيع أن يقرأ كتب التفسير التي تيسرت اليوم ولله الفضل والمنة، فلا عذر لأحد في فقه كتاب الله ﷻ.



ومما يساعد على ذلك أن يتعلَّم المؤمن التدبُّر المقصود، وهـــو ما يتعلَّق بمعنى الآيـــة، فليس التدبُّر صـــورة واحدة هي استخراج الإعجاز اللُّغوي والبلاغي وغيرها أو الصياغة الأدبية، بل يكفي قارئ القرآن أن يعرف معنـــى الآية ويتفاعل مع هذا المعنى بأن يجعله مُغَيِّرًا لإيمانـــه وحياته وعلاقته بالله، وهكذا يزداد مع الأيام فقهًا للآيات وتفاعلاً معها.

كما أن التدبُّر ليس هو مجرد تفاعل المشـــاعر مع الآية دون إحداث أثرٍ في العمل، فهذا أثرٌ مؤقتٌ، بـــل إنَّ التدبُّر يمتد أثره إلى واقع حياة قارئ القرآن، ومع الأيام وكثرة قراءة القرآن تجد أن سلوكه تغيَّر: بدأ يحافظ على الصَّلوات حيث يُنادى بهن، وبدأ

يحافظ على السُّــنن الرواتب والنوافل والوتــر، زاد حرصه على الدعاء، صار يأمــر بالخير وينهى عن المنكــر، أصبح لديه غيرة على حرمات الله، يستثقل كل جلسة ليس فيها ذكر الله، وتخلَّص من كلِّ ما لا يرضي الله، يقينه بالله ازداد، ويغني عن ذلك أنه فهم العبودية ودوره في هذه الحيــاة، وأيضًا مراقبته لله زادت، وازداد احتســابًا لله أكثر من وقتــه السَّــابق، واتضح له معنــى التوكُّل والاعتماد على الله، ومع كثرة قراءتــه وتأمله زاد زهده فيما عدا الله وحضور الله فــي قلبه أصبح واقعًا، ويغني عن كلِّ ما ســبق ضابطٌ هام لظهور أثر تدبُّر القرآن ألا وهو: أصبح أكثر استحضارًا للدَّار الآخرة، وهكذا انتقل تأمله للآيات إلى واقع حياته وإيمانه، وأما المعاني الدقيقة فتحتاج إلى إصغاء واستماع وتدبر[١].

إنَّ مما يساعد على التدبُّر: جلسة التركيز بعيدًا عما فيه تشويش للذهن، وهو ما يُســمَّى **حضور القلب** مع إلقاء السَّمع؛ لأن قراءة القرآن تحتاج إلى فهم واستيعاب، ومن شأن ذلك المكان الهادئ، نعم قد يصل الأمر بالمسلم إلى أن يقرأ القرآن على كلِّ أحيانه كما هو شأن النبي ﷺ فقد كان يذكر الله في كلِّ أحيانه[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى، (١١/ ١٤١).

(٢) صحيح مسلم، (٣٧٣).



ومن فوائد الترتيل أنـــه يمد الصَّوت بقراءة الآية مما يعطي فرصة للقلب أن يفهم الآية، ويتأمل بالمقصود منها، وإذا وجد قارئ القرآن تفاعلاً من نفســـه وقلبه في آيـــة؛ فليغتنم الفرصة وليكرِّرهـــا، وليُحسِّـــن الصوت عندهـــا، ويحاول أن يســـتثير مشـــاعره، حتى قال النبي ﷺ: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ، فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَـــوْا**»[1]، وقد كان النبي ﷺ يَمُدُّ صوته بالقراءة حال الترتيل، يُقطِّع قراءته آية آية[2].

ونختم بســـؤال عَبْدِ اللهِ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما قَالَ: قُلْتُ لِجَدَّتِي أَسْـــمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما: كَيْـــفَ كَانَ يَصْنَعُ أَصْحَابُ رَسُـــولِ اللهِ ﷺ إِذَا قَرَءُوا الْقُرْآنَ؟ قَالَتْ: «كَانُوا كَمَا نَعَتَهُمُ اللهُ تَعَالَى: تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ وَتَقْشَـــعِرُّ جُلُودُهُمْ». قُلْتُ: فَإِنَّ نَاسًا هَاهُنَا إِذَا سَـــمِعُوا ذَلِكَ تَأْخُذُهُمْ عَلَيْهِ غَشْـــيَةٌ، فَقَالَتْ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّـــيْطَانِ الرَّجِيمِ»[3]، وهذا يدلُّ علـــى أن اتباع الصَّحابة رضي الله عنهم يكون حتى في تعاملهم مع القرآن، وأنهم خيرُ مَن امتثل آيات القرآن، ولهذا لم يُعرف بينهم مَن يُغشـــى عليه، ولهذا تعوَّذت أسماء رضي الله عنها من الشَّيطان الرَّجيم.

---

(١) سنن ابن ماجة، (١٣٣٧)، وضعَّفه الألباني.

(٢) صحيح البخاري، (٥٠٤٦).

(٣) أخرجه البيهقي، (١٩٠٠)، وســـعيد بن منصور في (السنن)، (٩٥)، وقال محققوه: «إسناده صحيح».



سورة المسد وعظمتها:

مَن يقرأ سـورة المسـد ولا يعرف معناها، ولا يتأمل في آياتها وأحكامها، يطرأ علـى ذهنه أثناء القراءة أنها تكلَّمت عن شخصية رجل اسمه أبو لهب، كفر بالله، وأنه سيصلى النار وهو وامرأته، ولهذا فليس هناك شأن لهذه السورة في حياتنا اليومية، بينما هي سـورة عظيمة، ولو لم تُنزل في القـرآن لدخل علينا خللٌ في إيماننا على قدر فوات هذه السورة، فلله الحمد على إكماله لنا دينه، وإتمامه علينا نعمته.



وسـأقرأها قراءة تدبُّر حتى يحتذى حذوها فيما تيسر من قصار السُّور، فإنَّ هذه السُّور نزلت في فترة حرجة من الإسلام، وأراد الله ﷻ أن تكون إحدى لبنات بنائهم الإيماني، فلا يعقل ـ إذن ـ أن تكون سـورة قصة لرجل حدثت وانتهت أحكامها بموته.

وأول ما يبدأ به هو معنى السورة:

خسر أبو لهب وتمت خسارته بما جنته يداه، ولن يغني عنه ماله وما كسـبه من أولاد ومنصب وعز وعشيرة، وقريبًا يصلى نارًا تلظَّـى، ومعه امرأته التي كانت تحمـل الحطب لتؤذي به رسول الله ﷺ، وخالفت بذلك فطرة النسـاء في الابتعاد عن



أذية الرجال، وعدم الدخول فيما بينهـــم، وخالفت أيضًا عادة بعض نساء قومها اللآتي كنَّ يطلبن من أزواجهن أن يبتعدوا عن محمد وأصحابه، فإنَّ عاقبة الظُّلم وإيذاء الناس وخيمةٌ، ولهذا جوزيت هـــذه المرأة بأن لهـــا حبلاً في عنقها تُجـــر به في نار جهنم[1].

فإذا قرأها المؤمن وتدبَّر معانيها وتدارسها مع نفسه وأهله وأصحابه، وجد أمورًا عظيمة في هذه السورة؛ منها:



١ ـ في السُّورة أســـماء جليلة لله، فأول ما يذهلك اسم الله القاهر القهار القوي المتين وما يشاكلها من الأسماء التي تدلُّ على أن الله فعَّال لما يريد، وأنه إذا حكم حكمًا فلا رادَّ له، فقد قُرئت هذه السورة وأبو لهب يسمعها، ويتلوها الناسُ وهو حيٌّ بينهم، فكان المؤمنون عندهم من اليقين بموته على الكفر، وأن الله ﷻ ختم على قلبه بســـبب أفعاله، وأنه لما زاغ عن الهدى بعد إذ جاءه أزاغ الله قلبه، فكلما رآه أهل الإيمان ازدادوا إيمانًا بربهم، وخوفًا من عقابه ﷻ، والله إذا أراد شـــيئًا هيَّأ له أسبابه وفعله، ولو أراد أبو لهب أن يشكِّك الناس في الإسلام لأسلم ليبطل هذه الآيـــات التي تُتلى لكن هيهات، إنَّ الله يسَّـــر لأبي

(١) هذا التفسير هو إجمالي ما ذكره المفسرون دون النص على مفسر معين.



لهب وســائل الهداية ومكَّنه منها، فهو قــد حضر أول اجتماع للنبي ﷺ حين رقى على الصفا في أول إنذار أنذره قومه، وفي ذلك الموقف صدَّ عن ســبيل الله، وغيره زادته الأيام فتورًا في الصَّد أو هداية، أما هو فاستكباره وصده عن سبيل الله من أول يوم إلى أن مات على وتيرة واحدة، بــل زاد عنادًا وبُعدًا، ولم يراعِ جيرته للنبي ﷺ، فقد كان بيته قريبًا من بيته ﷺ، فلم ينفع معه قرابة رحم، ولا جوار العرب وحميتهم.

٢ ـ أبطلت الآيات نفع ما يكسبه العبد من مال أو جاه أو منصب وعشيرة، فكلها لا تغني من الله شيئًا، فما أغنى عن هذا الســيد المطاع في قومه ما يملكه من وسائل قد انفتن بها كثيرٌ من النَّــاس في زماننــا، وعليها تعتمد مشــاريع الإلحاد والتي ما هي إلا تضخيم للماديات وإلغاء للغيب.

٣ ـ في السُّورة كرم الله على الكافرين، فقد أمدهم بالكسب من مال وولد وعشيرة، وهي وسائل كان المفروض أن تعينهم للوصول إلى الله بطريق أســرع من غيرهم، وتحصيل درجات هي أرفع من غيرهم، لكن أبو لهب وأمثاله اســتعملها في غير ما وُضعت له، فكان ظالمًا لها ولنفسه، ولا زال أمثال أبي لهب ينعمون بما تَنَعَّم به أبو لهب وتشابهت أفعالهم.



٤ ـ وفي السورة إثبات البعث والجزاء وخروج الناس من قبورهم، وذكر النار التي هي آخر مشاهد يوم القيامة، فمَن آمن بها آمن وصدَّق بما قبلها من البعث والمرور على الصراط والصحف وغيرها، فما أعظم هذا الأثر على حياة المؤمن أن تحضر الآخرة في قلبه وأمام عينيه، فلا تسأل بعد قراءته لها عن أثر الآخرة على سلوكه وأفعاله.



٥ ـ في السُّورة ترهيب من النَّار ولهبها وإحراقها للأجساد، وأنها نارٌ حقيقية لها لهب يشتعل، موكل بأهلها، يعرفهم بأعمالهم، فيصاب القارئ للسورة برهبة ووجل من ذكر هذه النار، حتى أصحاب الفضيلة أئمة المساجد حينما يقرءون هذه السورة تحس أن الغنة في قوله الله تعالى: ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣] لها مخرج قلبي خاص.

٦ ـ وفيها تحذير للنساء عن اتباع سبيل هذه المرأة التي خرجت عن طبيعتها، وأقحمت نفسها الدخول في شئون الرجال، ونزعت منها الرحمة حتى على زوجها، هذا إنْ لم يكن هي لها حثٌّ له، ولأبي لهب طاعةٌ لها، وكمْ من شريف منصب تتحكم به امرأة مخذولة تسلَّط عليها الشَّيطان. وفي ذكر الحطب تأكيد على أنها استعملت ما يكون من خصائص النساء وشئونهن من الاحتطاب، استعملت ذلك في عداوتها



للنبـــي ﷺ، ووضعها الشـــوك في طريقه ﷺ يناســـب ضعف المرأة، وقلة حيلتها، فليس من شـــأنها أخبث من ذلك وأدنى، والشـــوك الذي تضعه يناسب الشـــوك الموجود في قلبها عن النبي ﷺ ودعوته وكلامه، ولو أن الشوك زال عن قلبها لأزالته من طريق النبي ﷺ، فكلُّ امرأة قرأت سورة المسد لها شعور إيماني حينما تمــر على الآية الخاصة بذكــر زوجة أبي لهب، فالنساء أعرف بالنساء.



٦ ـ وفي السُّــورة مثال للأســرة الســيئة التي يتعاون فيها الزوج مع زوجته على ما لا يرضي الله ﷻ، ولعل الحديث بين أبي لهب وزوجته كان عن النبي ﷺ ودعوتــه وحربه، فتعاونا على الإثم والعدوان.

٧ ـ وفي السُّورة تأكيد لقاعدة الجزاء من جنس العمل، فأبو لهب كان في عمــل دءوب للصَّــد عن ســبيل الله فجازاه الله بالخسارة، وامرأته تضع الشوك فرحةً بأذيته ﷺ، فأهانها الله ﷻ بحبل الذُّل في العنــق، العنق الذي هو موضــع جمال المرأة، ويهمها ذكره وشأنه، فكان موضع جمالها موضع خزيها، وما هو شعور النساء في ذلك الزمن وهن يسمعن هذه الآيات تتلى في حقِّ امرأة يعرفنها؟! وما شــعورهن وهن يرين عنقها إذا جلسن معها؟! لقد عاشت في خزي كما كان قلبها فيه خزي.



۞ ومن الأعمال القلبية المرتبطة بالسُّورة:

ـ **الخوف**: فالسُّورة تزرع الخوف من الله ﷻ، فإنه إذا حكم حكمًا فلا يُرد، ومَن طرده الله ﷻ؛ فمَن ذا الذي يؤويه؟!

ـ **التعلُّق بالله وحده**: فما بين يدي المؤمن من أسباب كسب من مال وولد وعشيرة ومنصب ومال ما هي إلا وسائل يستعين بها في تعبُّده لله، وإلا فهي لا تنفع من دون الله، فيرجع كل شيءٍ لحجمه الطبيعي في قلب المؤمن، فلا الأسباب تفتنه، ولا فواتها يعطله.



ـ **المحاسبة**: السُّورة تورث محاسبة العبد لنفسه وأسرته وزوجته وحاله وماله؛ لئلا تزيده خسارة عند الله، وتبيِّن للمؤمن كيف أن الله أخزى من أخزى دينه.

ـ **المحبة للنبي ﷺ**: السُّورة تزيد محبة المؤمن للنبي ﷺ، إذ رأى المؤمن كيف أن الله يدافع عن نبيِّه ﷺ؟ ويحميه ويغضب له، وينتصر ممن آذاه، ويتهدَّده ويتوعده، فلا يملك بعد ذلك إلا محبة مَن يحبه الله سبحانه وتعالى.

فالسُّورة على قصرها فيها إثبات لأركان الإيمان، وذكر لصفات الله وأفعاله كصفة القوة والقهر والعلم والعظمة والحكمة وغيرها، وفيها تهديد ووعيد، وفيها إثبات الجزاء في



الدُّنيا قبل الآخرة، وفيها ذكر للغيب الذي صدَّق به المؤمنون، وفيها فرح للمؤمن وتحزين للصَّادِّ عن سـبيل الله؛ فما أعظمها من سورة!!

فكيف إذا تنبَّه قارئ السُّورة لصفة اللهب التي ذكرت، وهي وإنْ كانت صفة للون بشـرته إلا أنها عذابه، فهناك تناسب بين لونه ولون النار، فله من النار لونها، وصفاتها؟!

وتنبَّه الفقهاء لذكر الزوجية في السُّـورة فأخذوا منه حكمًا فقيهًا يتعلَّق بصحة عقود الكافرين الزوجية، وأنها لا تتجدَّد بعد إسلامهم؛ لأن الله سمَّاها امرأته.



فإنْ كان قارئ السُّـورة لديه علم بالبلاغة وفقه اللُّغة وركَّز على كلمة (التبّ)، والشَّدة في كلمة (حمَّالة)، والسين الدالة على قُرب الموعود في كلمة (سيصلى)، وسيعرف فائدة ذكر الصَّلي دون ذكر دخول النار، والتعظيم الموجود في التنوين على كلمة (نارًا)، وسر ذكر الجِيد دون سائر الأعضاء، وهكذا كلما تضلَّع المؤمن من العلوم استخدمها في تدبُّر كلام سيده، فيحصل على ما لا يحصل عليه غيره، وهذا فضل الله يؤتيه الله مَن يشاء.

هذه السُّـورة لو لم تكن في المصحف لانتقص من حياتنا على قدر حاجتنـا لها، فلم ينزلُ الله سبحانه وتعالى حرفًـا إلا ولنا حاجة



ضرورية له، ولو انتقص من القرآن حرفٌ لانتقص من انتفاعنا على قدر ذلك الحرف.

أردتُ من هذا المثال أن أُبيِّن أن السُّور القصيرة فيها شفاؤنا وعلاجنا وزيادة إيمانِنا ما لو انشــغلنا فيها برهة من الدَّهر لكنَّا أهل ربح وفوز، ولعل هذا أحد أســرار مشروعية قصار السُّور في أغلب الصَّلوات، حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أُنْزِلَ الْمُفَصَّلُ بِمَكَّةَ، فَمَكَثْنَا حِجَجًا نَقْرَؤُهُ، لَا يَنْزِلُ غَيْرُهُ»[1]، أي: مكثوا سنين يقرءونه لا يخلطون معه غيــره، مما يدلُّ على ضرورته في بناء العقيدة الإسلامية.



حلقة تفسير:

أليس مــن الخلــل أن ننتهي من حفظ القــرآن ولا نعرف تفسيره ومعانيه؟! أليس من عدم التوازن أن ينهي الطالبُ القرآنَ ويبدأ في القراءات ولا زال غريب القــرآن غريبًا عنده؟! أليس من أولويات سُلم العلم الشَّــرعي أن يُبدأ بمعاني القرآن؟! هل يُحسُّ المتخصص بأحــد العلوم الشَّــرعية بتأنيب ضمير وهو

(١) سنن سعيد بن منصور، (١٢٦)، وقال المحقق: «سنده ضعيف»، وأخرجه الحاكــم، (٢/ ٢٢٤)، وقال: «هذا الحديث على شــرط الشــيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.



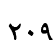
يُدقِّق بمســـائل فنه بينما يفوته معاني الكثير من آيات القرآن؟! كيف كان الصَّحابة والسَّلف يتعلَّمون القرآن ومعانيه؟!

مما يساعد على تقريب الفجوة التي بيننا وبين فهم القرآن أن تكون هناك حلقٌ لتفســـير القرآن تتوافـــق مع تحفيظ القرآن الكريم، فمَن يحفظ شـــيئًا من القرآن عند حلقة التحفيظ يتعلَّم في الوقت نفسه تفسير الآيات تفسيرًا إجماليًّا عند حلقة التفسير، فيسير الفهم مع الحفظ فيزداد رسوخًا.

إنَّ منهج الصَّحابة رضي الله عنهم منهج العشـــر آيات كما حكاه أبي عبد الرحمن الســـلمي رضي الله عنه قال: «حَدَّثَنَـــا مَـــنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ»[(١)]، وهذا المعنى متواتر عن الصَّحابة والتابعين رضي الله عنهم.

والعشر آيات هي متوســـط حفظ الطالب اليوم تقريبًا، فلو قرأها الحافظ ثم شُـــرح له المعنى في حلقة التفســـير، وتعلَّم

(١) أخرجه عبد الرزاق في (المصنف) (٣٠٥٤٩)، وابن سعد في (الطبقات)، (٦/ ١٧٢)، وســـنده صحيـــح، وأخرجـــه الطبـــري (١/ ٣٥) عـــن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا عليه وسنده صحيح.





ما فيها من أسماء الله وصفاته وأفعاله، وما فيها من أوامر ونواهٍ لاجتمع للطالب الحافظ القرآن والعلم به.

وكان منهج آخر للصحابة رضي الله عنهم يخبرنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن الطريقة التي كان جبريل عليه السلام يُعلِّم بها نبيَّنا ﷺ، فقد روى ابن عبد الرزاق في مصنفه عن عمر رضي الله عنه قوله: «تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ خَمْسَ آيَاتٍ خَمْسَ آيَاتٍ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَأْخُذُهُ خَمْسًا خَمْسًا»[1]، وكان هذا هو الغالب.



وقد امتثل عمر رضي الله عنه فتعلَّم سورة البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزورًا، ولا شكَّ أن عمر رضي الله عنه قادرٌ على الحفظ والتعلُّم بأقل من ذلك إلا أنه كان يتعلَّمها متمهلاً متأملاً متدبرًا.

وفي ترجمة الإمام أحمد رحمه الله أنه أتم ضبط حفظ القرآن بعدما جاوز عمره الخمسين سنة، حيث قال: «كنتُ أحفظ القرآن، فلما طلبت الحديثَ اشتغلتُ فسأَلت الله عز وجل أَن يمنَّ عليَّ بحفظه ولم أقل: في عافية، فما حفظته إلا في السجن

---

(١) مصنف عبد الرزاق، (٣٠٥٥٠)، وقال ابن كثير في (فضائل القرآن)، ص(٢٢٧): «سنده جيد».



والقيود»[1]، وقبل ذلك كان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشتغلًا بفقه القرآن والعمل به.

ومن أخذ السَّبع الطِّوال؛ فقد أخذ الخير كما جاء عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَخَذَ السَّبْعَ الطُّوَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَهُوَ خَيْرٌ**»[2]، وكلمة (خير) نكرة تفيد العموم، وفي السَّبع الطِّوال أصول الإسلام والدِّين.

ولا تظن أنهم يقرءون القرآن ويعطِّلون حياتهم اليومية؛ فقد قال ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «إذا رجع أحدكم من سوقه؛ فلينشر المصحف فليقرأ»[3]، وهذا هو التوازن بين أداء الواجب العيني من طلب الرزق مع الواجب العبادي.

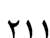
ومع توفر كتب التفسير اليوم المبسوطة والمختصرة أصبح شأن حلقة التفسير ميسورًا ولله الحمد، إنَّ حفظ القرآن مع معرفة معانيه تأخذ بيد صاحب القرآن حتى تغرس فيه شجرة الإيمان، ثم لا تزال الآيات المحفوظة تسقي تلك الشجرة يوميًّا حتى تنمو وتزكو.

---

(١) مناقب الإمام أحمد، ص(٣٩).

(٢) أخرجه الحاكم، (٥٨٥٥)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وحسَّنه الألباني في (صحيح الجامع)، (٥/ ٢٣٢).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(١٠٥).





ومن تأمَّل السُّنة وجدها تَحثُّ على حلق التفسير وتأمر بها، فقول النبي ﷺ: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ**»[1]. فنلاحظ أنه ذكر التلاوة والتدارس وهو التفسير ومعرفة المعنى وتثوير الآيات، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إِذَا أَرَدْتُمُ الْعِلْمَ فَأَثِيرُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّ فِيهِ خَبَرَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ»[2].



وكذلك حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ، فَقَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ، أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟**»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: «**أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ، أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ**»[3].

واللطيف في الحديث أنه ربط تعلُّم الآية والآيتين بالمسجد لبركته ولأن هذا من رفعه المقصود في قوله تعالى:

---

(١) صحيح مسلم، (٢٦٩٩).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(٩٦)، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد): «رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح».

(٣) صحيح مسلم، (٨٠٣).



﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ ﴾ [النور: ٣٦]، وقد كان ابن مسعود رضي الله عنه إذا اجتمع إليه إخوانه نشروا المصحف فقرءوا وفسَّر لهم[١]، وأخرج سعيد بن منصور رحمه الله في سننه عن عمير بن ربيعة رضي الله عنه قال: «رأيت أبا الدرداء يُدَرِّس القرآن في جماعة من أصحابه»[٢].

وفي حلقة التفسير ينبغي للمفسر أن يركِّز على قضيتين:

أحدهما: أسماء الله وصفاته وأفعاله.

والأخرى: عِلم المُنعم، كما أسماها الآجري رحمه الله فقال وهو يتكلَّم عن بعض أمراض الزمان: «لا يَرْغَبُ فِي مَعْرِفَةِ عِلْمِ النِّعَمِ، وَلا فِي عِلْمِ شُكْرِ الْمُنْعِمِ»[٣]، ويقصد بعلم النِّعم استخراج نعمة الله والتعريف بها من خلال كتاب الله، وصدق رحمه الله؛ فإنَّ معرفة النِّعم علمٌ ينبغي معرفته وطلبه. فإنَّ هاتين القضيتين تثمران تعظيم الله سبحانه وتعالى ومحبته، وهما أساس أعمال القلوب والجوارح.

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(١٠٥).

(٢) سنن سعيد بن منصور، (١٦٣)، وقال المحقق (٢/ ٤٨٥): «سنده ضعيف؛ لجهالة حال محمد بن يزيد وعمير بن ربيعة، ولأن إسماعيل بن عياش لم يصرح بالسماع هنا وهو مدلس».

(٣) أخلاق حملة القرآن، ص(٣٢).



بقي أن أختم بكلام للشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ يبيِّن أن أكثر معاني القرآن واضحة للعامة والخاصة من العرب، وضرب لذلك أمثلة فقال: «تدبَّر القرآن واقرأه بتدبُّر وتعقُّل، ورغبة في العمل والفائدة، لا تقرأه بقلب غافل، اقرأه بقلب حاضر بتفهُّم وبتعقُّل، واسألْ عما أشكل عليك، اسأل أهل العلم عما أشكل عليك مع أن أكثره بحمد الله واضح للعامة والخاصة ممن يعرف اللُّغة العربية مثل قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، وقوله سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فكُلُّها آياتٌ واضحاتٌ بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها ما حرَّم على عباده وما أحل لهم وما أمرهم به، وما نهاهم عنه»[1].



---

(١) مجموع فتاوى ابن باز، (٩/ ٢٥).



فهذا القدر من الآيات الواضحة المفترض ألا يتجاوزه الطالب الحافظ إلا وقد عرفه وجاهد نفسه على العمل به، فيجتمع له العلم والعمل.

ومن توفيق الله سبحانه وتعالى للشَّاب أن يتعلَّم معاني القرآن في بداية عمره وإقباله على الطلب؛ فإنَّ القرآن يخالط ذهنه وقلبه ولحمه ويسري في عروقه، كما هو حال زيد بن ثابت رضي الله عنه، ولهذا تمَّ اختياره في لجنة كتابة المصحف.

وجاء في هذا المعنى أثر كعب الأحبار رضي الله عنه أنه مكتوبٌ في التوراة: أن الفتى إذا تعلَّم القرآن وهو حديث السِّن، وحرص عليه، وعمل به، وتابعه، خلطه الله بلحمه ودمه»[1]، ويشهد له قوله صلى الله عليه وسلم: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ»[2]، والمهارة أقرب للشَّاب الذي تعلَّم القرآن بداية عمره.



نماذج من المقامات العالية في قراءة القرآن:

قيل لرجل قليل النَّوم: ألا تنام؟ فقال: إنَّ عجائب القرآن أذهبت نومي[3]، ولا تعجب من ذلك؛ فإنَّ النفس إذا تعلَّقت

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(٤٧).

(٢) متفق عليه: البخاري، (٤٦٥٣)، ومسلم، (٧٩٨).

(٣) الزهد للإمام أحمد، ص(٤٤٠).



بشيء أزال ذكرُهُ نومَها كما هو مشاهد في الواقع، فمَن انشغل ذهنه بسفر أو تجارة أو معاملة طَارَ عنه النَّومُ.

ولهذا سأجمع بعض ما وقفت عليه من قصص المقامات العالية في تعاملهم مع القرآن، وخلطت معها شـــيئًا من قصص المعاصرين، ومن ذلك:

❁ كانت هناك عادة عند السَّــلف وهي قــراءة القرآن في البيوت لدرجة ظهور الأصوات خارج البيوت، وأعجب ما قيل فــي ظهــور أصــوات القُــرَّاء ما ذكــره الفقيــه ابــن الفقيه، عبد الرحمن بن عبد الله بن ذكوان عن أبيه أبي الزناد ﵁ قال: «كنت أخرج من السَّــحر إلى مسجد رســول الله ﷺ، فلا أمر ببيت إلا وفيه قارئ».



وقال أيضًا ﵀: «كنا ونحــن فتيان نريد أن نخرج لحاجة فنقول: موعدكم قيام القُرَّاء»(١)، وهذا يدلُّ على أن قراءة القرآن في البيوت كانــت ظاهرة اجتماعيــة، ولهذا قلَّــت الغفلة في بيوتهم، وعلى هذا نشأت أسرهم وبيوتهم.

❁ وجاء في (فضائــل القرآن) لأبي عبيــد أن عثمان بن عفان وتميم الداري وابن ســيرين ﵃ قرءوا القــرآن كلَّه في

---

(١) موسوعة ابن أبي الدنيا، (١/ ٣١٠).



ركعة[1]، وكان علقمة يقرأ القرآن في خمسٍ، والأسود في ستٍ، وعبد الرحمن بن يزيد في سبعٍ[2]، وأبو رجاء العطاردي يختم كلَّ عشــر ليالٍ[3]، وهذا دليلٌ على أن القرآن أُلين في ألسنتهم كثيرًا، وقد مضى بيان ذلك في تضاعيف الكتاب.

❁ وكان قتــادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يختم القــرآن في ســبعٍ، وإذا جاء رمضان ختم في كلِّ ثلاثٍ، فإذا جاء العشــر ختم كلَّ ليلةٍ[4]، وبمثل ذلك تســتغل مواســم الخيرات، وأنبِّه إلى أن استغلال مواسم الخيرات لا يكون إلا على قدر العبادة قبلها، فمَن عبَد أُعين كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فإعانة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جاءت بعد تعبُّد العبد له، ومَن أقبل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شبرًا أقبل الله إليه ذراعًا.



وحُفظ عــن أبي حنيفة الإمــام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه ختــم القرآن في الموضع الذي توفي فيه ســبعة آلاف مرة[5]، وحريٌّ بمثل هذا التوافق أن يكون من رحمة الله بأبي حنيفة الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(٨٠).

(٢) تاريخ بغداد، (١٨٠/٤١).

(٣) طبقات القراء السبعة، ص(٣١).

(٤) سير أعلام النبلاء، (٢٧٦/٥).

(٥) تاريخ بغداد، (٣٥٤/١٣).



❁ ومن قصـــص أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ التي تناســب موضوع القــرآن أن مســعر بن كدام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقــول: «دخلــت ذات ليلة المســجد فرأيت رجلاً يصلي فاســتحليت قراءته، فقرأ سُبعًا فقلت: يركع، ثم قــرأ الثلث، ثم قرأ النصــف، فلم يزل يقرأ القرآن حتى ختمه كله في ركعــة، فنظرت فإذا أبي حنيفة»[1]، وهذا سلوك المؤمن حينما تنشط نفسه للعبادة، وللنفس إقبال وإدبار، فــإذا أقبلت فليأخذ منهــا نصيبًا وافــرًا، وإذا أدبرت فليقتصر على الواجب.



❁ وأبو بكر بن عياش رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقرأ القرآن حتى حال مرضه، فيقول: «ما أتت عليَّ ليلة في مرض إلا وأنا أقرأ فيها القرآن»[2]، والقرآن شفاءٌ لأمراض البدن كما هو شــفاءٌ لأمراض القلب، ومن بُعدنا عن القرآن أننا نمرض فلا نرقي أنفسنا بالفاتحة التي سُمِّيت الشَّافية.

❁ وابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يخبر عــن أبي منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو من كبار الصَّالحيــن الزَّاهديــن المتعبدين، كان لــه ورِدٌ بين العشاءين، يقرأ فيه سبعًا من القرآن قائمًا وقاعدًا، حتى طعن في

---

(١) المصدر السابق، (١٣/ ٣٥٦).

(٢) المصدر السابق، (١٤/ ٣٨٣).



السِّـــن(١)، وهذا تطبيـــقٌ لقـــول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ [المزمل: ٨]، فالنهار لأشغال العبد، والليل يتركه المؤمن لعبادته الخاصة.

❁ ومن أعجب مَـــن صَبَر فـــي تعليم القـــرآن وتحفيظه أبو علي أحمد بـــن أحمد بن أبي الحســـن بن دويرة البصري المقرئ الزاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، شيخ الحنابلة بالبصرة، ختمَ عليه القرآن أزيد من ألف إنســـان(٢)، فمعلمُ تحفيظ القرآن أبعد النَّاس عن العجز والكســـل، ولا يزال القرآن يمدُّه بالنشاط والقوة، ونِعْم العمل جلوسه لتعليم القرآن.



❁ ومثلـــه: إلياس بْـــن عَلـــوان الْمُقْـــرِئ، رُكـــن الدِّين الإربليّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، تصدَّر للإقراء بجامع دمشق، ولقَّن خلْقًا، ويقال: ختم عليه أربعـــة آلاف نفس وأكثـــر، كذا قَالَ شـــمسُ الدِّين مُحَمَّدُ بْـــنُ إِبْرَاهِيـــم الْجَـــزَرِيُّ، وذكـــر أنَّه قرأ عليـــه القرآن، فمثله رَحِمَهُ ٱللَّهُ يصنع بالقرآن أرواحًا مضيئة تنير للمسلمين حياتها.

❁ وأبو منصور الخيـــاط المقرئ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كَانَ لَـــهُ وِرد بين العشاءين، يقرأ فيه سبعًا من القرآن قائمًا وقاعدًا، حتَّى طعن في

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة، ص(٣٩).

(٢) شذرات الذهب، (٥/٢٥٨).



السِّن[1]، والاستمرار على ذلك مع تتابع الأيام والسنين هو من توفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لمن يشاء من عباده.

❁ وآدم ابن أبي إياس الخرساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان مقرئًا للقرآن، وحضرته الوفاة وهو في أحد الختمات[2]، وهذا مما يخفِّف هول المصرع، فالجزاء من جنس العمل، ومَن مات على شيءٍ بُعث عليه، فيقوم الناس من قبورهم مفزوعين، بينما هذا وأمثاله ينفض التراب ثم يقرأ القرآن، وهذا فضل الله يؤتيه الله مَن يشاء.

❁ وفي السَّفر يستغلون الوقت لقراءة القرآن، فهذا صالح بن كيسان المدني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يُحدث عنه يعقوب بن عبد الرحمن عن أبيه قال: «خرجت مع صالح بن كيسان إلى الحج، فربما ختم القرآن في ليلة بين شعبتي رحله»[3]، وهذا من البر والتقوى الذي يسأله المسافرُ في دعاء السَّفر أول ما يخرج من بلده.

❁ ومن باب إرجاع الأمور لنصابها، فقد كان مالك بن دينار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من أحفظ النَّاس للقرآن، وكان يقرأ كلَّ يوم جزءًا من

(١) تاريخ الإسلام، (١٠/ ٨١٦).
(٢) إكمال تهذيب الكمال، (٢/ ٢٩).
(٣) المصدر السابق، (٦/ ٣٤٢).



القرآن حتى يختم، فإنْ أسقط حرفًا قال: «بذنب مني وما الله بظلام للعبيد»[1]، فالطَّاعات تقوي الذَّاكرة، والذُّنوب تُسبِّب النسيان، إذًا النسيان من الشَّيطان، وعلاج الذُّنوب الاستغفار، وأخطر الذُّنوب ما كان فيه إصرار، وعلاجه دوام الاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله ﷿.

❁ ومن عجائب القرآن أنه يضيء البيوت التي يُقرأ فيها، فيراها أهل السَّماء كما نرى النجوم في السَّماء، كما قاله عبد الرحمن بن سابط ﵁: «إنَّ البيوت التي يقرأ فيها القرآن لتضيء لأهل السَّماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض»[2]، وكما أن النجوم تختلف في شدة إضاءتها فكذلك البيوت تختلف بناءً على كثرة ما يُقرأ فيها من القرآن.

❁ ومن أعجب ما جاء في منامات القُرَّاء، والرُّؤيا جزء من أجزاء النبوة، ما جاء عن مجاعة بن الزبير ﵁ قال: «دخلت على حمزة بن حبيب الزيات القارئ المعروف فوجدته يبكي، فقلت: ما يبكيك؟! فقال: ألا أبكي، وقد رأيت ربي ـ تبارك وتعالى ـ الليلة في منامي، كأني عرضت على الله ـ تبارك وتعالى

(١) غاية النهاية في طبقات القراء، (٢/ ٣٦).
(٢) طبقات القُرَّاء السُّبعة، ص(٤٣).



ـ فقال لي: يا حمزة، اقرأ القرآن كما علمتك، فوثبت قائمًا، فقال لي: يا حمزة، اجلس فإني أحب أهل القرآن، ثم قال لي: اقرأ، ثم دعا بسوارٍ فسورني، فقال ﷻ: هذا بقراءتك القرآن، ثم دعا بمنطقة فمنطقني، فقال ﷻ: هذا بصومك النهار، ثم دعا بتاجٍ فتوَّجني، ثم قال ﷻ: هذا بإقرائك النَّاس القرآن، يا حمزة: لا تدع تنزيلاً، فإني نزلته تنزيلاً؛ أفتلومني أن أبكي؟!»[1].

❁ وبرنامج حمزة صاحب هذه الرؤيا أنه كان رَحِمَهُ اللهُ يختم في كلِّ شهر خمسًا وعشرين ختمة، وكان إذا فرغ من إقراء القرآن صلى أربع ركعات، وكان يصلي بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وكان لا ينام الليل كلَّه، وكان جيرانه يسمعونه يرتل القرآن ترتيلاً[2].



❁ وصف سفيان الثوري شيخه عمرو بن قيس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فقال: «هو الذي أدَّبني، علَّمني قراءة القرآن والفرائض، وكنتُ أطلبه في سوقه، فإنْ لم أجده، ففي بيته، إما يصلي، أو يقرأ في المصحف، كأنه يبادر أمرًا يفوته»[3]، والعجيب في الترجمة

---

(١) المصدر السابق، ص(١٦٨).

(٢) المصدر السابق، ص(١٦٩).

(٣) سير أعلام النبلاء، (٦/ ٢٥٠).



قوله: (كأنه يطلب أمرًا يفوته) أي: أنه لا يضيِّع لحظة من وقته كأن أمامه أمرٌ قد يفوت، فهو يبادر لئلا يفوت، وذهابه للسُّوق مع بيته ومصحفه وصلاته هو التوازن بحيث لا يطغى أمرٌ على أمر، وهذا الميزان الذي أنزله الله مع الكتاب.

ولا تزال هذه الأمة مباركة، وفي المتأخرين منها مَن يُجدِّد الله به سِـــير المتقدمين، فمِن قصص المعاصرين في كتاب شذا الياسمين[1]:

❁ إبراهيم السياري كان كثير تلاوة القرآن، يقول بعض من سافر معه: لقد قام ليلة بأربعة عشر جزءًا من القرآن.

❁ إبراهيم السويد كان يختم القرآن كل ثلاثة أيام، ويقرؤه في كل أحواله ماشيًا وقاعدًا وأثناء عمله.

❁ إرشـــاد الهندي: والذي عمل مدرسًـــا في المســـجد الحـــرام، كان كثير التـــلاوة للقرآن فكان حزبه اليومي عشـــرة أجزاء، فيختـــم في كل ثلاثة أيام، بالإضافـــة إلى مداومته على سماع ثلاثة أجزاء من المصحف المرتل للشيخ الحصري.

❁ جار الله بن مقبـــل العنزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ والذي توفي ١٤٣٤هـ كان يختم القـــرآن تلاوة من المصحف كل يـــوم، وعلى مدى

(١) شذا الياسمين في أخبار المعاصرين، عبد الله العنزي ١/ ٣٦.



سـنوات، وقد تمزق بين يديه عدة مصاحـف، وأخبر عنه من يعرفه بأنه منذ ٢٣ سـنة كان يختم يوميًا، ويقول: قد يأتيني من يشغلني لكني لا أنام حتى أختم.

❁ حميد بن محمد القليطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقـول ابنه وَجْدي كان ينام الساعة العاشرة ليلًا ويسـتيقظ الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل، يقوم ويقرأ القرآن إلى الساعة الثالثة والنصف، ثم يذهب إلى المسـجد ويكمل قراءة القرآن إلى إقامة صلاة الفجر، ثم يجلس في المسجد ويكمل قراءة القرآن إلى طلوع الشمس.



❁ سـعود بن غنيم الحربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ والذي توفي ١٤٣٨هـ كان يقرأ القرآن بعد صلاة الفجر حتى شـروق الشـمس، ثم يذهب للبيت للإفطار ثم يقرأ ما بين الساعة إلى ساعتين، وبعد الغداء يقرأ في غرفته ما تيسر له من القرآن، ثم يقرأ بعد العصر إلى قبل المغرب بنصف ساعة، ثم يتناول القهوة، ثم يقرأ بعد العشاء في غرفته ما تيسر له.

❁ سعيد بن حسـن الغامدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ والذي توفي ١٤٣٦هـ فقد أخبر عنه الأستاذ سـعيد بن جيلان الغامدي: حدثني عن نفسـه فقال: إنه رُزق حبَّ القرآن وتلاوته آنـاء الليل وأطراف



النهار، وبعد تقاعده كان يختم كل شــهر ٤٧ مرة، ويبدأ قيامه لليل الســاعة الواحدة والنصف ليلًا ويصلي حتى يصبح صيفًا وشتاءً.

❁ سهيل بن مشــروع العتيبي كان يختم القرآن كل ثلاثة أيام، وبعدما كبر ومرض وأرهقه مرض السكر أصبح يختم كل سبعة أيام، وفي آخر عمره عندما ذهبوا به للمستشفى دخل في غيبوبة أخذ يقرأ القرآن فتعجَّب الأطباء منه.

❁ ثنيان بــن طريخم الغرمــول البقمي يحــدِّث عنه ابنه مناحي فيقول: كان كثير القراءة للقرآن، ويختم كل أســبوع في يوم الاثنين، وسألته عن ذلك فقال: حتى أمرَّ بسورة الكهف يوم الجمعة.



❁ عبد الرحمن بــن عبد الله الخضيــري يحدث عنه من يعرفه بأنه كان مشــغولًا بالتلاوة ويختم فــي كل ثلاث، وفي رمضان كل يوم له ختمة، ويسمع لتلاوته حشرجة في الصدر.

❁ عبد الله بن حســن عمران كان يراجع كل يوم خمسة أجزاء بعد صلاة الفجر، فكان يختم القرآن كل ستة أيام.

❁ عيادة بن سالم الشمري يخبر عنه ابنه محمد بأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان كثير قراءة القرآن، وكان شاعرًا فترك الشعر للتفرغ للقرآن،



وعند موته كان يقرأ ســورة البقرة وهو يحتضر، فلما انتهى من أية الكرسي تشهد فنام على جنبه رَحِمَهُ اللهُ.

وفي كتاب شذا الياسمين من أخبار المعاصرين فيه قصص عجائب.

ومما وقفتُ عليه من القصص:

❁ أني قابلتُ رجــلاً دخل حلقة التحفيــظ وعمرُهُ اثنان وسبعون سنة، وختم القرآن وعمره خمسةٌ وسبعون سنة، وكان مصحفه لا ينزل من يده، وقال لي: أنا ولدتُ يوم دخلت حلقة تحفيظ القرآن.



❁ وأخبرني أحد مشــايخي بأنــه قرأ القــرآن كاملاً يوم الجمعة بعد صلاة الفجر، وختم عند دخول الخطيب للخطبة.

❁ وقــال أحــد المقرئيــن المعاصرين: ما نظــرتُ في المصحف منذ أربعين سنة، لشدة إتقانه وضبطه، مع العلم أنه يراجع محفوظه بالقراءات العشر كلها».

❁ ويذكر بعض المقربين عن الشيخ هاني السنوسي ـ أحد المقرئين المصريين ـ أنه لم يمسك المصحف منذ عشرين سنة، وكل مراجعته من محفوظه.



❁ ويُذكر عن الشَّيخ محمد جويدة المصري أنه كان يقرأ القرآن قائمًا وقاعــدًا وعلى جنب، ولا يمنعه عــن القرآن إلا دخول الخلاء، وكانوا يســمُّونه محمد القُرْأنجي، لكثرة قراءته للقرآن، ويحدِّثون عنه أنه إذا وقف لشــراء الخبز عند المخبز اســتغل وقته في قراءة القرآن غيبًا، ويســتمر بالقراءة إلى حين رجوعه، وكان لا يتحدَّث مع أحد، إنما كان مشــغولاً بالقراءة والمراجعة.

❁ وحدَّثني أحد المشــايخ عن الشَّــيخ كمال عبد القادر المصري كان يراجع في اليوم عشرة أجزاء مع كِبر سِنه ومرضه، وقد تعب فــي أحد الأيــام تعبًا شــديدًا، فكان يُغمــى عليه، ولا يمنعه عــن القــرآن إلا الإغماء، فــإذا أفاق قــرأ وأكمل محفوظه، حتى مات وهو يقرأ القرآن رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



❁ ومن علو الهمة في التعليم؛ فهناك شابٌّ أُصيب بشلل رُباعي بســبب حادث مروري، فلا يتحرَّك منه إلا رأسه، فتفرَّغ لحفظ القرآن وتعليمه، فكان يُعلِّم القرآن في بيته، ثم توسع بعد دخول النت في تعليــم القرآن، ولديــه الآن أكاديمية لتحفيظ القرآن المعروفة بروح وريحان، وأخذ يفتح دُور تحفيظ نسائية في القُرى المجاورة لقريته فنفع الله به، وخرَّج عشرات الحفاظ.



❁ وكذلك الشَّيخ عصام تَمَّام وهو موظف حكومي ومع هذا لديه أكثر من أربعمائــة طالب، وكان يبدأ التحفيظ من بعد الفجر إلى السَّاعة السَّابعة، فيذهب للعمل الوظيفي، فيعود بعد الظهر للتحفيظ إلى السَّــاعة الحادية عشــرة ليــلاً، وهذا من الأعاجيب في الصَّبر والمصابرة.

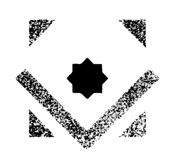
❁ وحدَّثني أحدُ الفضلاء عن ابن أختــه ختم القرآن في الصَّف الثاني الابتدائي.

❁ وأخبرني صديقٌ لي بأن أحد جماعة مسجده من كبار السِّــن العاكفين على القرآن كان به ثــلاث ختمات، ختمةٌ في المســجد، وختمة أخرى فــي البيت، وختمة ثالثــة في محله التجاري، وكان بعــد كلِّ صلاة يقرأ مائة وعشــرين وجهًا من القرآن.









الفهرس









